
www.kotobarabia.com
مركز الدراسات الاشتراكية
www.kotobarabia.com
جرامشي ضد الإصلاحية
كريس هارمان

جرامشي ضد الإصلاحية

كريس هارمان

مركز الدراسات الاشتراكية

فهرس

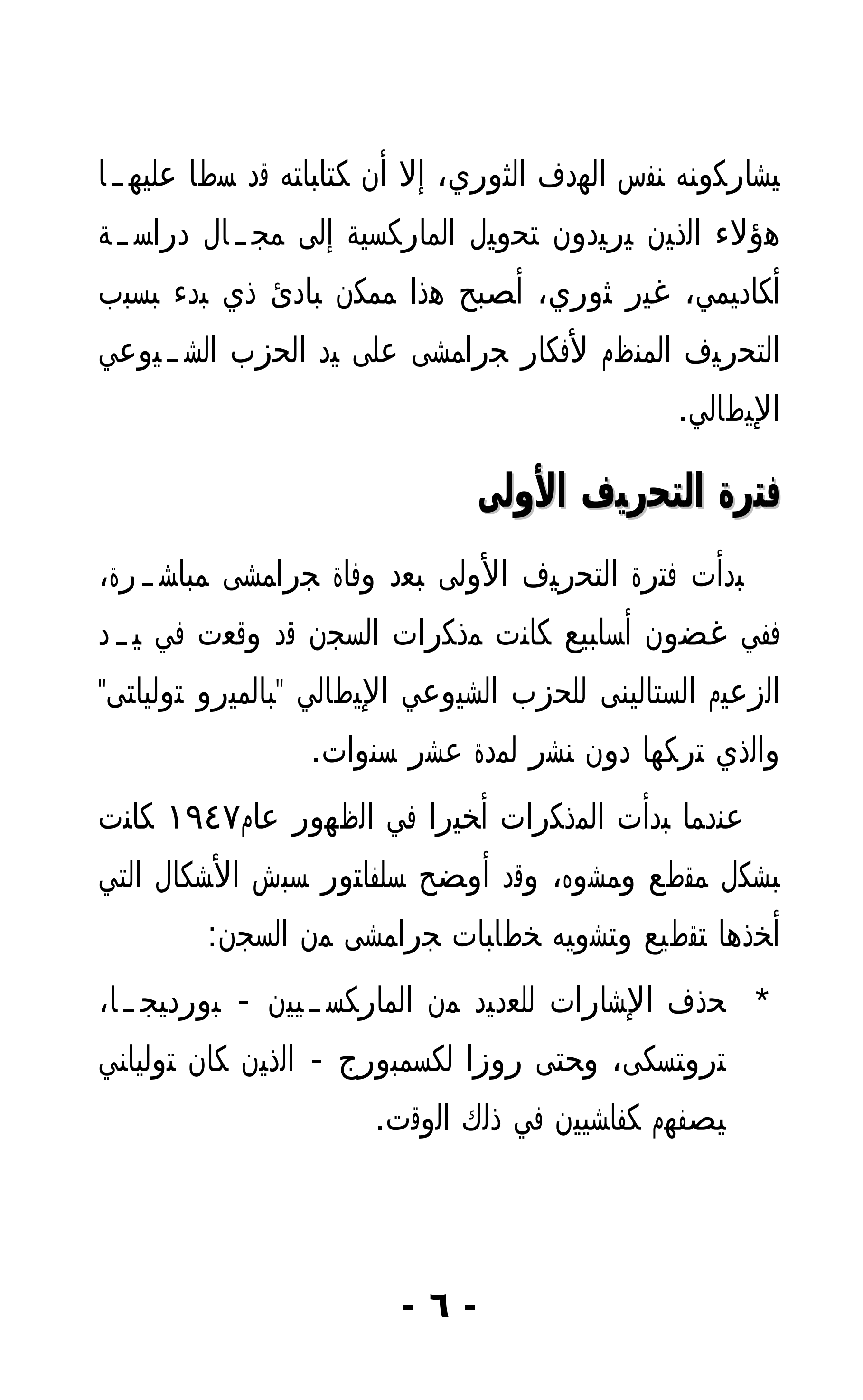
أثناء حياة الثوريين العظماء، تعقبتهم الطبقات المضطهدة بدون توقف، استقبلت نظرياتهم بالتحقير الوحشي، وبـالكره العنيف وبأبشع حملات الأكاذيب والتشـهير.. بعـد مـوتهم تحاول تلك الطبقات أن تحولهم إلى أيقونـات غيـر ضـارة لتضحيل أسمائهم بينما تفرغ - في الوقت ذاته - نظـريتهم السياسية من مضمونها أن تنعم سنها الثوري وأن تفججهـا.. وتلتقي البرجوازية مع الانتهازيين داخل الحركة العمالية في هذه العملية... يحذفون أو يشوهون أو يشوشون على الجانب الثوري في النظرية، روحها الثورية إنهم يظهرون ويركزون على ما هو أو ما يبدو مقبولا للبرجوازية.

لينين: الدولة والثورة

توفى أنطونيو جرامشى منذ أكثر من سـتين عامـا فـي السابع والعشرين من أبريل ١٩٣٧ نتيجة لسنوات طويلة من سوء المعاملة في سجون موسولينى، ولكن بشكل ما عـانى

أكثر منذ وفاته بسبب التحريف الذي حدث لأفكاره على يـد هؤلاء الذين لا علاقة لهم بمبادئه الاشتراكية الثورية.

عمل جرامشى كثوري محترف منذ ١٩١٦ وحتى وفاته. بقى طوال هذه الفترة مصمما على تحويل المجتمع ثوريا من خلال الإطاحة بالدولة الرأسمالية. كان هذا هو سبب وجـوده أثناء عمله كصحفي في العديد من الجرائد الاشـتراكية فـي مقدمة الذين طالبوا الحزب الاشتراكي بعمـل ثـوري فـي النضال ضد الرأسمالية والحرب بين (١٩١٦-١٩١٨). كان هذا هو سبب توجهه إلى قلب حركة لجـان المصـانع فـي تورينو عامي ١٩١٩، ١٩٢٠. كان هذا أيضا هو الذي أدى إلى المشاركة في الانشقاق عن الحزب الاشتراكي الإصلاحي وتأسيس حزب شيوعي ثوري، هذا ما دفعه لتولى مسـئولية هذا الحزب بين ١٩٢٤-١٩٢٦، وأخيرا كان هذا هو سـبب دخوله سجون موسولينى، التي حاول فيها من خلال مذكراته (مذكرات السجن) الشهيرة أن يطور أفكاره الخاصـة عـن المجتمع الإيطالي، عن استراتيجية وتكتيك الصراع من أجل السلطة السياسية عن بناء الحزب الثوري وعـن الصـحافة الثورية، كان يأمل أن تساعد هذه المذكرات الآخرين الـذين



يشاركونه نفس الهدف الثوري، إلا أن كتاباته قد سطا عليهـا هؤلاء الذين يريدون تحويل الماركسية إلى مجـال دراسـة أكاديمي، غير ثوري، أصبح هذا ممكن بادئ ذي بدء بسبب التحريف المنظم لأفكار جرامشى على يد الحزب الشـيوعي الإيطالي.

فترة التحريف الأولى

بدأت فترة التحريف الأولى بعد وفاة جرامشى مباشـرة، ففي غضون أسابيع كانت مذكرات السجن قد وقعت في يـد الزعيم الستالينى للحزب الشيوعي الإيطالي "بالميرو توليياتى" والذي تركها دون نشر لمدة عشر سنوات.

عندما بدأت المذكرات أخيرا في الظهور عام١٩٤٧ كانت بشكل مقطع ومشوه، وقد أوضح سلفاتور سبش الأشكال التي أخذها تقطيع وتشويه خطابات جرامشى من السجن:

* حذف الإشارات للعديد من الماركسـيين - بورديجـا، تروتسكى، وحتى روزا لكسمبورج - الذين كان توليانى يصفهم كفاشيين في ذلك الوقت.

* إخفاء حقيقة قطع جرامشى مع الخط السياسي للحـزب الشيوعي الإيطالي منذ ١٩٣١.
* وصف حياة جرامشى الخاصة أنها قامت على أسـاس مثالي، وهم يجعل الناس يؤمنون بالوفاء الشيوعي بوحدة العائلة ، واستخدم هذا كأداة في سياسة التعاون مع القوى اليمينية والتي انتهجها الحزب الشيوعي في فترة ما بعد الحرب.
* مداراة حقيقة محاولات جرامشى المتكـررة للحصـول على كتب تعرفه بفكر تروتسكى بعد نفيه من روسيا عام ١٩٢٩.

استهدفت هذه التحريفات تقديم جرامشى كمناضل ستالينى مخلص مثالي. ليصبح جرامشى هكذا سلاحا مفيـدا للغايـة لأيديولوجية لم تكن تلهم أي مفكرين اجتمـاعيين يـذكروا، سلاح يستخدم في إصهار المثقفين الإيطاليين بالتراث النظري "الغنى" الذي يتمتع به الحزب الشيوعي الإيطالي وللتغطيـة على الفقر الفكري الذي كان الكرملين وأتباعه يعانون منـه، سلاح يستخدم أيضا ضـد اليسـار، لإظهـار أن الحـزب الشيوعي الإيطالي الذي كان يحكم إيطاليا بالاشـتراك مـع

الديمقراطيين المسيحيين بعد عام ١٩٤٥ كـان هـو نفـس الحزب الذي انفصل عن الجناح الإصـلاحي فـي الحـزب الاشتراكي عام ١٩٢١.

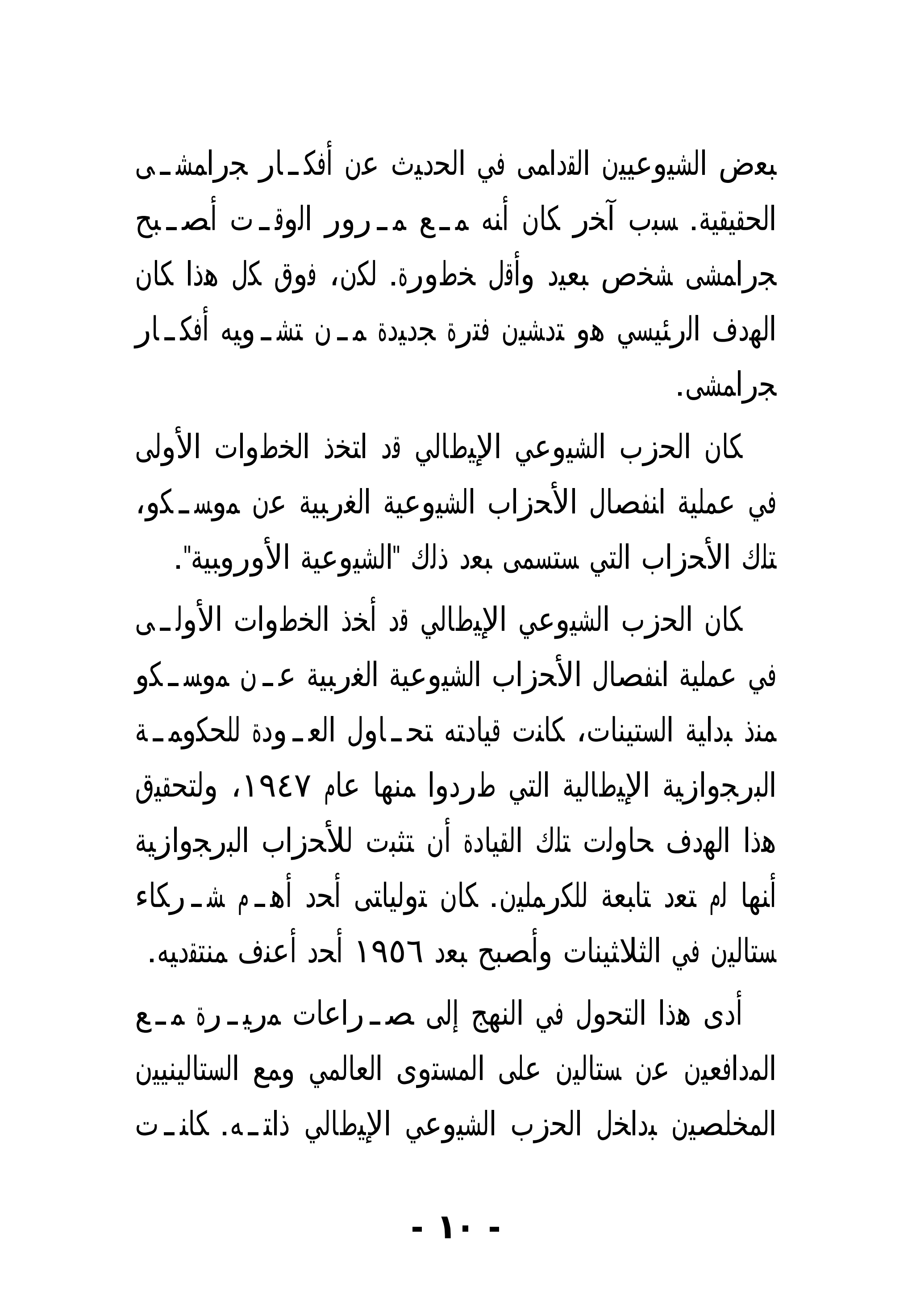
كان تقطيع وتشويه فكر جرامشى ضروريا، لأن حقيقـة واقع جرامشى لم تكن لتتلاءم والخرافات الستالينية، لقد كان خطابه الأخير قبل دخوله السجن عبارة عن احتجـاج مقـدم لتولياتى عن المعاملة البيروقراطية التي تعامل بها ستالين مع المعارضة اليسارية وقد مزق تولياتى هذا الخطاب.

في ١٩٣١ قام شقيق جرامشى بزيارته في السجن، وقـد أبلغه جرامشى برفضه لسياسة (الفتـرة الثالثـة) الســتالينية المتطرفة اليسارية التي كان تولياتى ينفذها. (كان تولياتى قد طرد ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية لمعارضـتهم لهـذه السياسة، وتحت الاسم المستعار "أركول" كان توليـاتى فـي مقدمة المدافعين عن هذا الخطأ السياسـي ضـد انتقـادات تروتسكى). ولخوفه الشديد على أخيه لم ينقل شقيق جرامشى هذه الأخبار لتولياتى، فقد كان يعرف أن هذا سيعنى تخلـى الحزب عن الدفاع عن أخيه ضد سجانيه الفاشـيين، تخلـى جرامشى عن محاولاته لفتح حوارات مع السجناء الشيوعيين

الآخرين لأن بعضهم ممـن كـانوا يـرددون كالببغـاوات المخلصة كلام تولياتى أدانوا جرامشى على أنه "اشتراكي - ديمقراطي" (كان النهج الستالينى في ذلك الوقت يمنع التعاون مع الإصلاحيين على أساس أنهم اشتراكيون فاشيون)، وفـى أحد آخر تصريحات جرامشى السياسية لأصدقائه قبل وفاتـه عبر عن عدم تصديقه للأدلة التي قدمت ضد زينوفييف فـي محاكمات موسكو. كان تولياتى، بالطبع، في موسكو يصـفق لهذه المحاكمات. حاول تولياتى، بعد وفاة جرامشى، أن يقدم نفسه كصديق عمره السياسي. ولكن، ورغم أنهم عملوا سويا بشكل مقرب في أعوام ١٩١٩ - ١٩٢٠ و١٩٢٥ - ١٩٢٦، إلا أنهم كانوا عادة مختلفين بشدة حول مسائل الإسـتراتيجية والتكتيك الثوري أثناء تلك الفترات. ولـم تكـن هنـاك أي اتصالات بالمرة بينهما بعد سجن جرامشى عام ١٩٢٦.

فترة تحريف "الشيوعية الأوروبية"

في نهاية الأمر، وعلى الرغم من كل هذا، كان توليـاتى هو الذي سمح بظهور حقيقة التحريفات السابقة عندما سـمح بنشر خطابات ومذكرات جرامشى بدون حذف أو رقابة كان أحد أسباب ذلك هو اضطرار تولياتى لفعل هذا بعد أن بـدأ


بعض الشيوعيين القدامى في الحديث عن أفكـار جرامشـى الحقيقية. سبب آخر كان أنه مـع مـرور الوقـت أصـبح جرامشى شخص بعيد وأقل خطورة. لكن، فوق كل هذا كان الهدف الرئيسي هو تدشين فترة جديدة مـن تشـويه أفكـار جرامشى.

كان الحزب الشيوعي الإيطالي قد اتخذ الخطوات الأولى في عملية انفصال الأحزاب الشيوعية الغربية عن موسـكو، تلك الأحزاب التي ستسمى بعد ذلك "الشيوعية الأوروبية".

كان الحزب الشيوعي الإيطالي قد أخذ الخطوات الأولـى في عملية انفصال الأحزاب الشيوعية الغربية عـن موسـكو منذ بداية الستينات، كانت قيادته تحـاول العـودة للحكومـة البرجوازية الإيطالية التي طردوا منها عام ١٩٤٧، ولتحقيق هذا الهدف حاولت تلك القيادة أن تثبت للأحزاب البرجوازية أنها لم تعد تابعة للكرملين. كان تولياتى أحد أهـم شـركاء ستالين في الثلاثينات وأصبح بعد ١٩٥٦ أحد أعنف منتقديه.

أدى هذا التحول في النهج إلى صـراعات مريـرة مـع المدافعين عن ستالين على المستوى العالمي ومع الستالينيين المخلصين بداخل الحزب الشيوعي الإيطالي ذاتـه. كانـت

المعركة تجرى على جبهتين- أولا، لتأكيد استقلال الحـزب عن ورثة ستالين في الكرملين وثانيا، لإثبـات أن انضـمام الحزب الشيوعي الإيطالي إلى الحكومة لن يعنى تغير جذري في جهاز الدولة. أصبح نقد جرامشى لستالين، والذي كـان خاضعا للرقابة في الماضي، سـلاحا مهمـا علـى الجبهـة الأخرى، وأصبح تشويه أفكار جرامشى عن الدولة سـلاحا مفيدا على الجبهة الثانية.

أصبح جرامشى قديسا للشـيوعية الأوروبيـة، وحرفـت أفكاره لتبرير التوفيق التاريخي الذي تم بين الحزب الشيوعي الإيطالي، وبـين الـديمقراطيين المسـيحيين (المحـافظين الإيطاليين).

ولكن سرعان ما انطفأ نجم الشـيوعية الأوربيـة، إلا أن ادعاءاتها عن جرامشى بقيت، وانتشرت عن طريق دوريات مثل "الماركسية اليوم" وسيل لا ينتهي من الكتب الأكاديميـة وأكثر فأكثر كجزء من الفكر العام لمثقفي يسـار الأحـزاب الإصلاحية الأوروبية.

ولكن، وعلى الرغم من كل هذه الادعـاءات، لا يوجـد مفكرون ماركسيون تبعد روحهم عن الإصلاحية مثلما تبعـد

روح جرامشى عنها، فقد بنيت أفكاره على مفاهيم يصـنفها إصلاحيو اليوم على أنها "انتفاضوية"، "عمالوية"، "عفويـة"، "قواعدية".

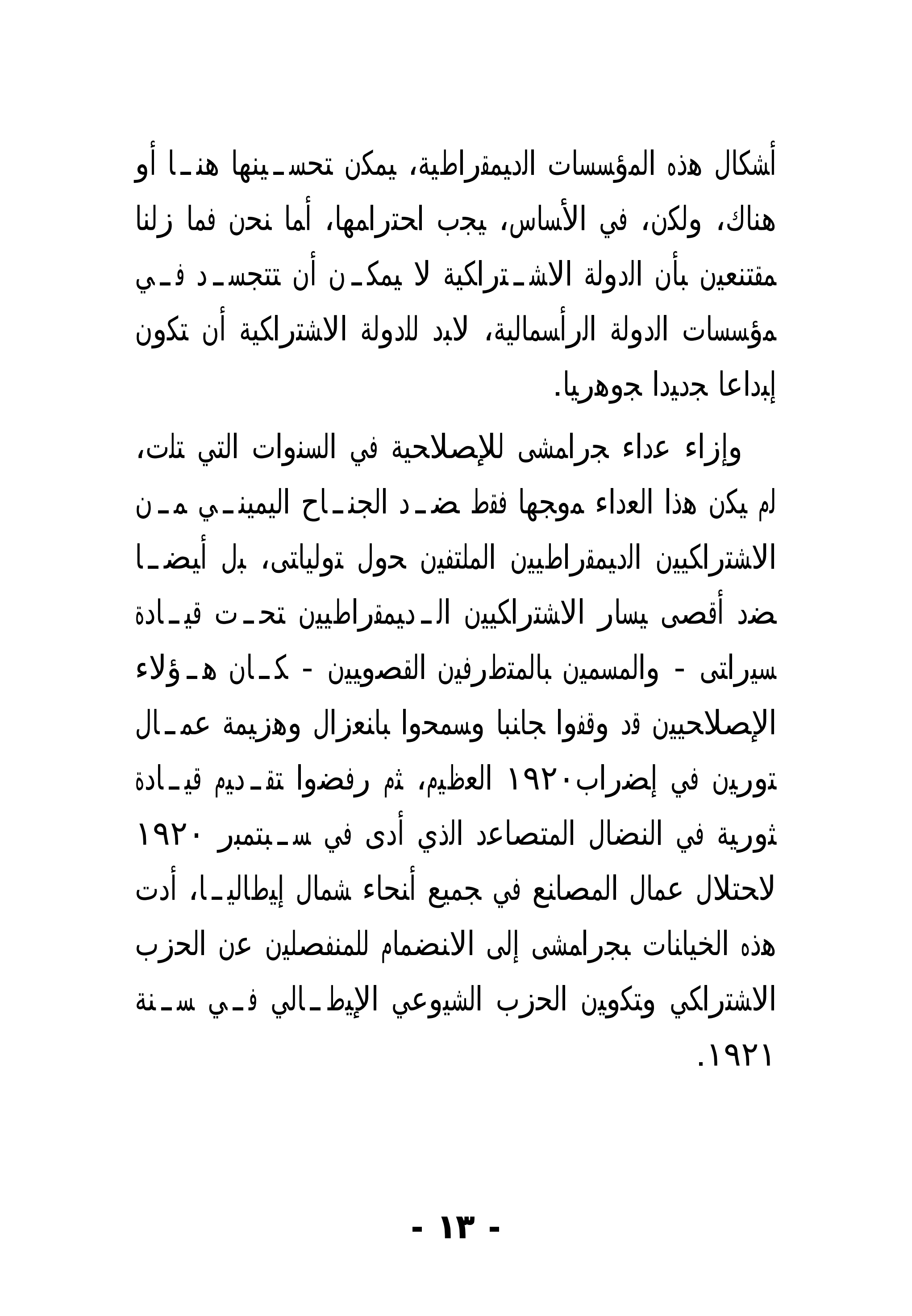
الإنتفاضوية

منذ دخوله الحركة الاشتراكية وجرامشى يكـن احتقـارا مريرا للبرلمانيين، ففي ١٩١٨ قال جرامشى، في عبـارات يمكن أن تنطبق على إيطاليا اليوم:

إن الانحطاط السياسي الذي يؤدى إليه التعـاون الطبقـي سببه الاتساع لحزب برجوازي لا يرضيه مجرد الالتصـاق بالدولة بل يستخدم أيضا الحزب المعادى للدولـة (الحـزب الاشتراكي).

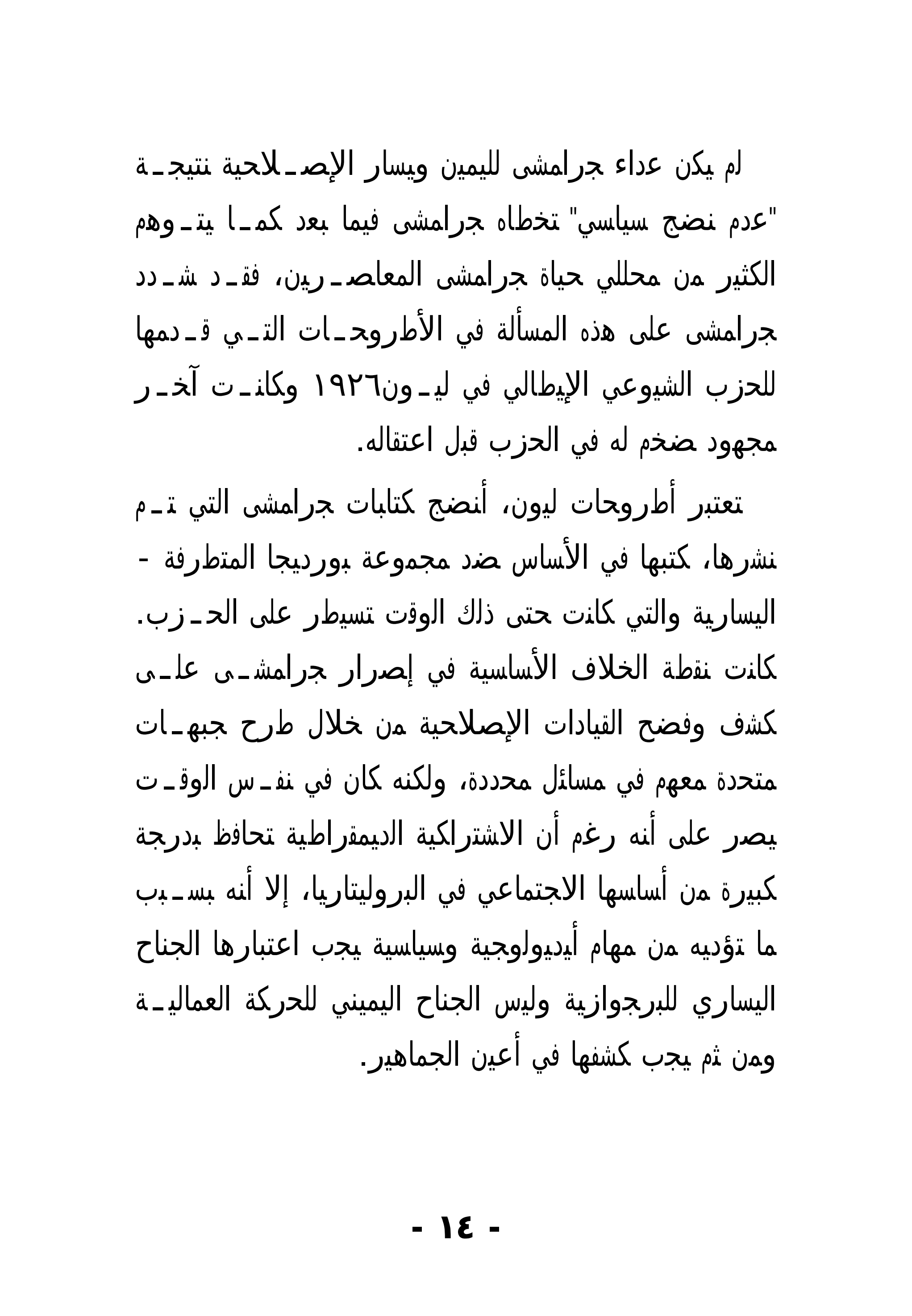
لقد ركز جرامشى على مسألة بناء لجان المصـانع فـي ١٩١٩ بسبب اقتناعه بأن الوسيلة الوحيدة أمام الطبقة العاملة لتحقيق ثورتها هي من خلال مؤسسات جديدة، غير برلمانية.

لقد قبل البرلمانيون ببساطة الواقع التاريخي النـاتج عـن المبادرة الرأسمالية، إنهـم يؤمنـون بديمومـة وجوهريـة مؤسسات الدولة الديمقراطية، وفى نظرهم يمكـن تصـحيح



أشكال هذه المؤسسات الديمقراطية، يمكن تحسـينها هنـا أو هناك، ولكن، في الأساس، يجب احترامها، أما نحن فما زلنا مقتنعين بأن الدولة الاشـتراكية لا يمكـن أن تتجسـد فـي مؤسسات الدولة الرأسمالية، لابد للدولة الاشتراكية أن تكون إبداعا جديدا جوهريا.

وإزاء عداء جرامشى للإصلاحية في السنوات التي تلت، لم يكن هذا العداء موجها فقط ضـد الجنـاح اليمينـي مـن الاشتراكيين الديمقراطيين الملتفين حول تولياتى، بل أيضـا ضد أقصى يسار الاشتراكيين الـديمقراطيين تحـت قيـادة سيراتى - والمسمين بالمتطرفين القصويين - كـان هـؤلاء الإصلاحيين قد وقفوا جانبا وسمحوا بانعزال وهزيمة عمـال تورين في إضراب ١٩٢٠ العظيم، ثم رفضوا تقـديم قيـادة ثورية في النضال المتصاعد الذي أدى في سـبتمبر ١٩٢٠ لاحتلال عمال المصانع في جميع أنحاء شمال إيطاليـا، أدت هذه الخيانات بجرامشى إلى الانضمام للمنفصلين عن الحزب الاشتراكي وتكوين الحزب الشيوعي الإيطـالي فـي سـنة ١٩٢١.



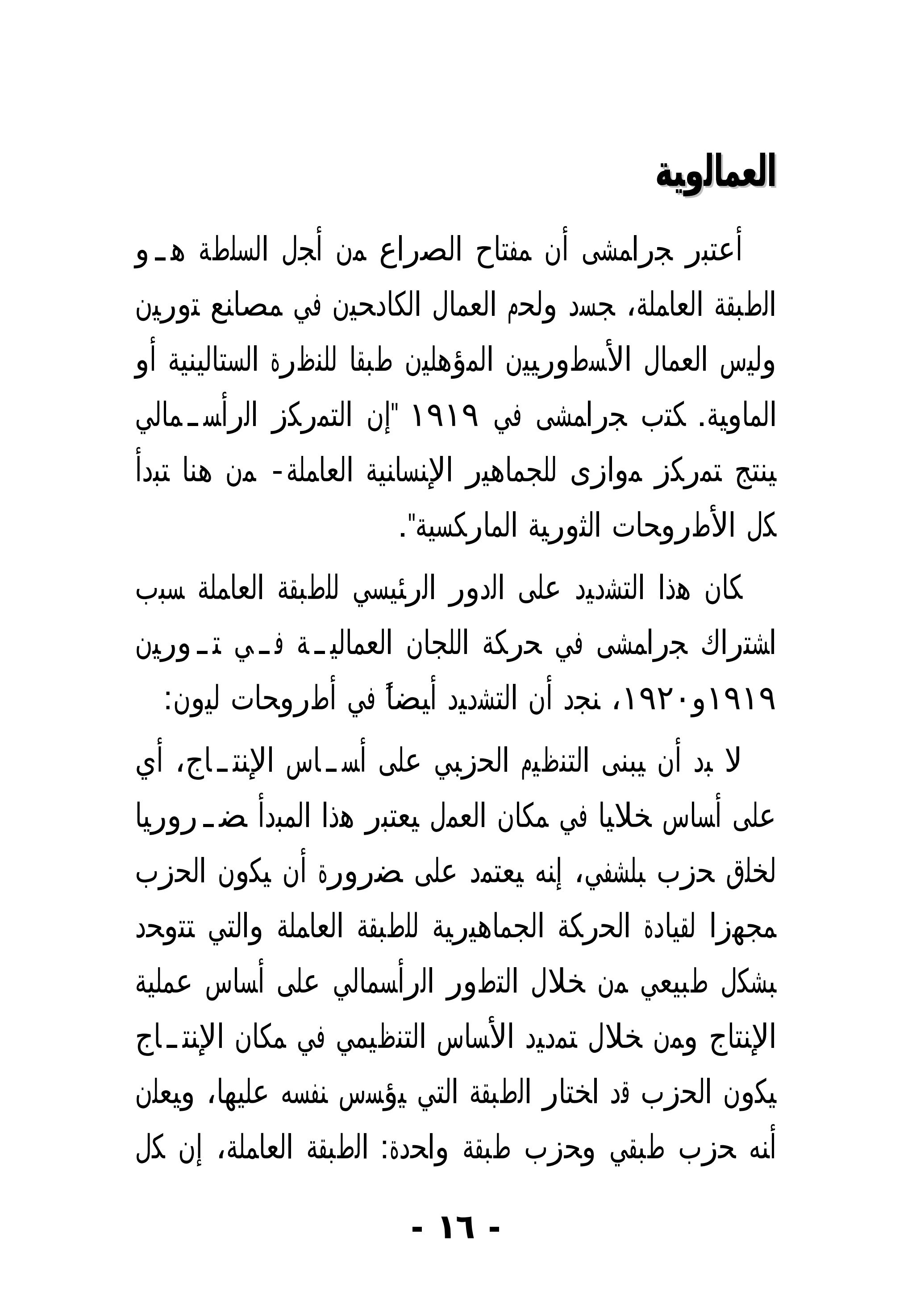
لم يكن عداء جرامشى لليمين ويسار الإصلاحية نتيجة "عدم نضج سياسي" تخطاه جرامشى فيما بعد كما يتوهم الكثير من محللي حياة جرامشى المعاصرين، فقد شدد جرامشى على هذه المسألة في الأطروحات التي قدمها للحزب الشيوعي الإيطالي في ليون١٩٢٦ وكانت آخر مجهود ضخم له في الحزب قبل اعتقاله.

تعتبر أطروحات ليون، أنضج كتابات جرامشى التي تم نشرها، كتبها في الأساس ضد مجموعة بورديجا المتطرفة - اليسارية والتي كانت حتى ذلك الوقت تسيطر على الحزب. كانت نقطة الخلاف الأساسية في إصرار جرامشى على كشف وفضح القيادات الإصلاحية من خلال طرح جبهات متحدة معهم في مسائل محددة، ولكنه كان في نفس الوقت يصر على أنه رغم أن الاشتراكية الديمقراطية تحافظ بدرجة كبيرة من أساسها الاجتماعي في البروليتاريا، إلا أنه بسبب ما تؤديه من مهام أيديولوجية وسياسية يجب اعتبارها الجناح اليساري للبرجوازية وليس الجناح اليميني للحركة العمالية ومن ثم يجب كشفها في أعين الجماهير.

يعتبر هذا التعريف شبيه جدا بتعريف لينـين للأحـزاب الإصلاحية كأحزاب "عمالية برجوازية" وليس من المستغرب أنه رغم أن "أطروحات ليون" هي مـن أفضـل تحلـيلات جرامشى، فهي كانت من أواخر الأعمال التي تـم السـماح بنشرها.

تماشى عداء جرامشى للإصلاحية مـع فهمـه العميـق لضرورة الانتفاضة المسلحة، تقول "أطروحات ليون":

كانت هزيمة البروليتاريا الثورية فـي الفتـرة الحاسـمة ١٩١٩-١٩٢٠ نتيجة لقصور سياسي وتكتيكـي وتنظيمـي وإستراتيجي عانى منه الحـزب العمـالي، وكنتيجـة لهـذا القصور لم تنجح البروليتاريا في وضع نفسـها علـى رأس انتفاضة الغالبية العظمى من الشعب وتوجيهها نحو خلق دولة عمالية، بدلا من ذلك وقعت هي نفسها تحت نفـوذ طبقـات اجتماعية أخرى شكلت نشاطها.



العمالوية

أعتبر جرامشى أن مفتاح الصراع من أجل السلطة هـو الطبقة العاملة، جسد ولحم العمال الكادحين في مصانع تورين وليس العمال الأسطوريين المؤهلين طبقا للنظرة الستالينية أو الماوية. كتب جرامشى في ١٩١٩ "إن التمركز الرأسـمالي ينتج تمركز موازى للجماهير الإنسانية العاملة- من هنا تبدأ كل الأطروحات الثورية الماركسية".

كان هذا التشديد على الدور الرئيسي للطبقة العاملة سبب اشتراك جرامشى في حركة اللجان العماليـة فـي تـورين ١٩١٩و١٩٢٠، نجد أن التشديد أيضاً في أطروحات ليون:

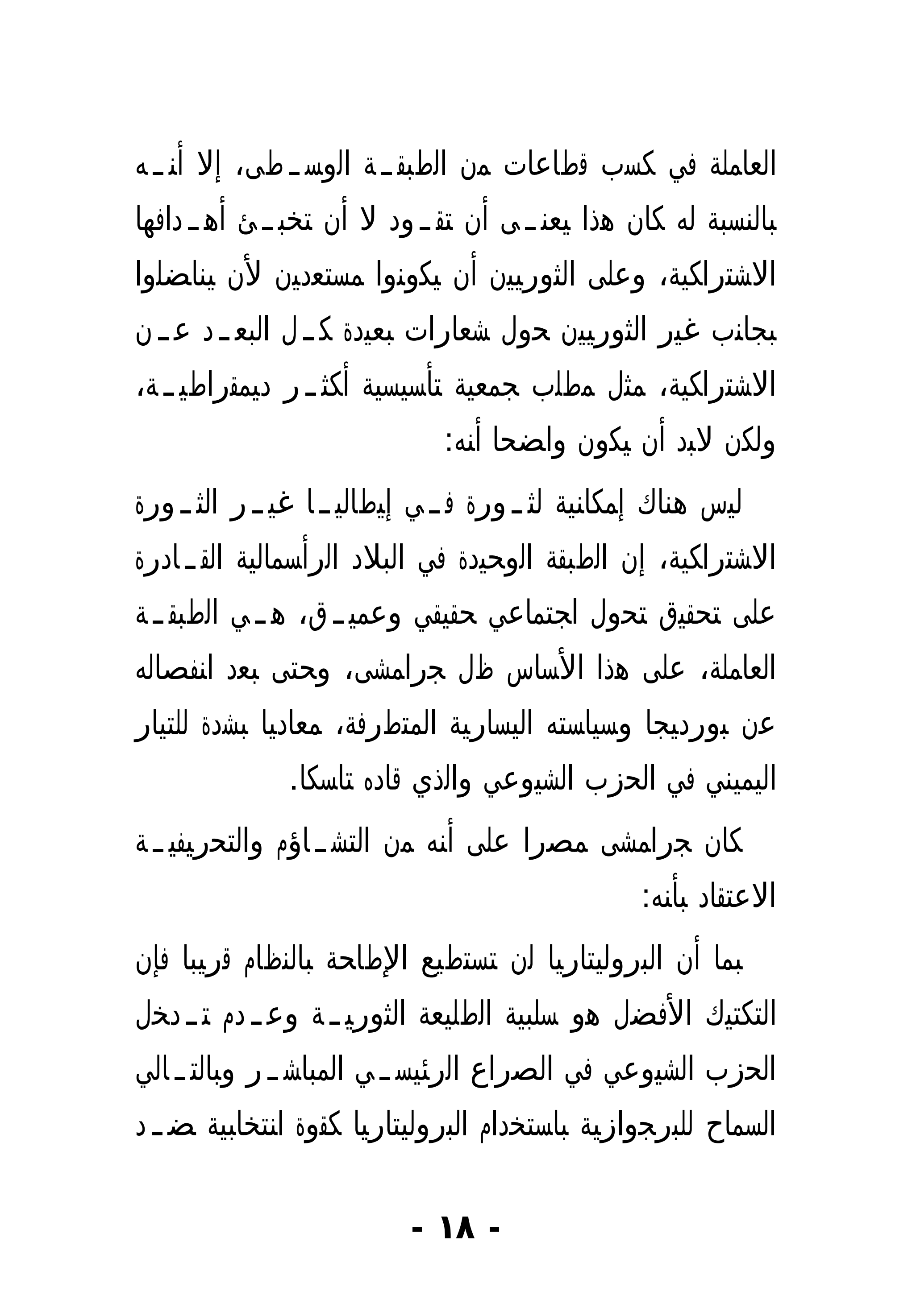
لا بد أن يبنى التنظيم الحزبي على أسـاس الإنتـاج، أي على أساس خلايا في مكان العمل يعتبر هذا المبدأ ضـروريا لخلق حزب بلشفي، إنه يعتمد على ضرورة أن يكون الحزب مجهزا لقيادة الحركة الجماهيرية للطبقة العاملة والتي تتوحد بشكل طبيعي من خلال التطور الرأسمالي على أساس عملية الإنتاج ومن خلال تمديد الأساس التنظيمي في مكان الإنتـاج يكون الحزب قد اختار الطبقة التي يؤسس نفسه عليها، ويعلن أنه حزب طبقي وحزب طبقة واحدة: الطبقة العاملة، إن كل

الاعتراضات على المبدأ الذي يؤسس التنظيم الحزبي علـى مكان الإنتاج هـي نتيجـة مفـاهيم طبقـات غريبـة عـن البروليتاريا... إن تلك الاعتراضات تعبر عن الروح المعادية للبروليتاريا لدى مثقفي البرجوازية الصغيرة الذين يؤمنـون بأنهم ملح الأرض وأن العمال ما هم إلا وسائل مادية للتغيير الاجتماعي وليسـوا الفـاعلين الـواعين والمـدركين فـي الثورة....

لابد أن يضم الحـزب مثقفـين وفلاحـين، ولكـن مـن الضروري أن نرفض بشكل قاطع وكمفاهيم مضادة للثـورة تلك التي تجعل من الحزب توليفة من العناصر المختلفة بدلا من الإصرار وبدون أي تنازلات من هذه النوعية، علـى أن الحزب هو جزء من البروليتاريا وأنه يجب على البروليتاريا أن تلونه بطابعها التنظيمـي الخـاص... لابـد أن يضـمن للبروليتاريا الدور القيادي داخل الحزب ذاته.

والسبب بسيط - فالطبقة العاملة هـي القـوة الثوريـة الحاسمة.

لم ينكر جرامشى أبدا الأهمية الحيويـة لكسـب العمـال الزراعيين والفلاحين للثورة.. كان يرى منفعة كبيرة للطبقـة

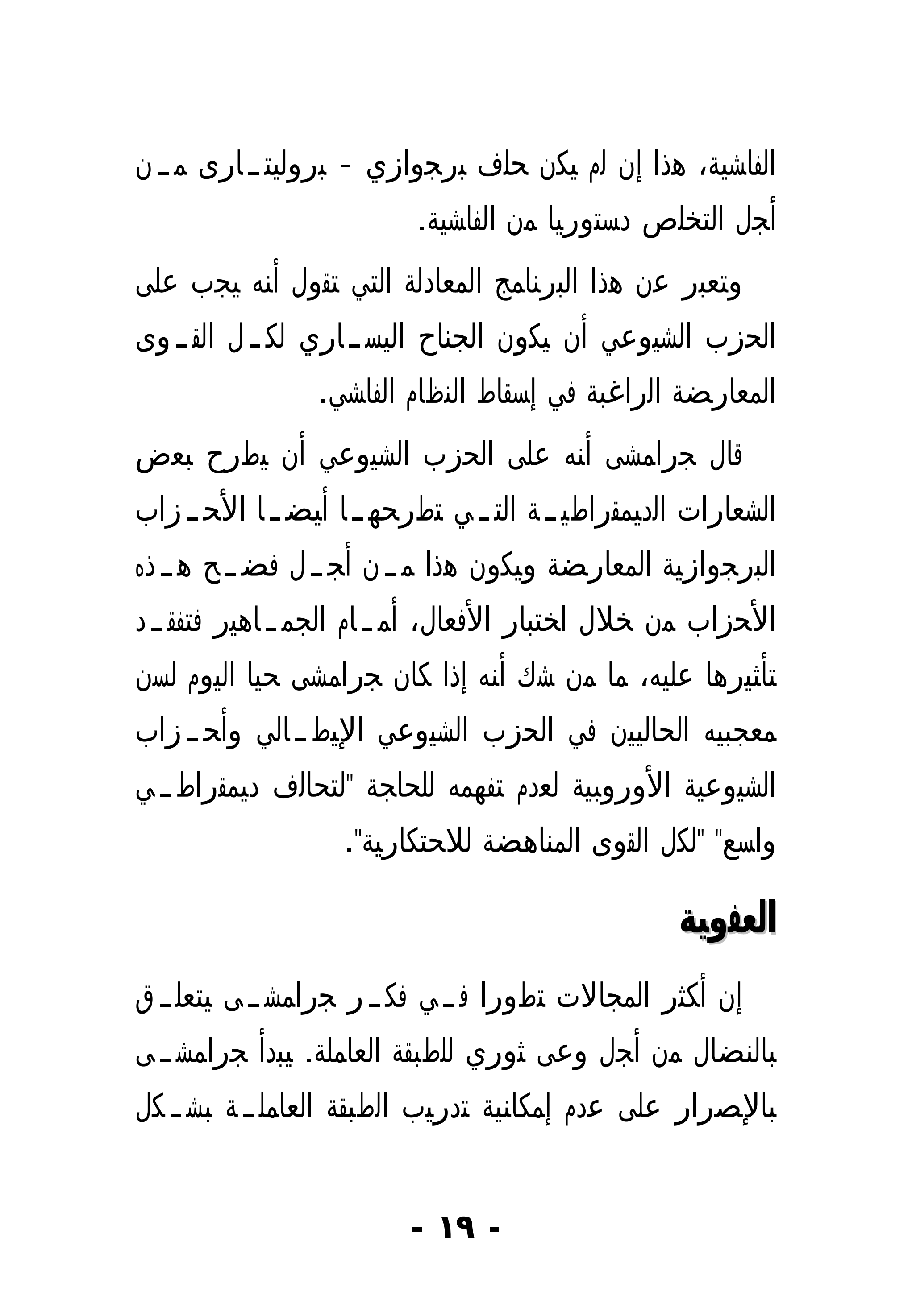


العاملة في كسب قطاعات من الطبقـة الوسـطى، إلا أنـه بالنسبة له كان هذا يعنـى أن تقـود لا أن تخبـئ أهـدافها الاشتراكية، وعلى الثوريين أن يكونوا مستعدين لأن يناضلوا بجانب غير الثوريين حول شعارات بعيدة كـل البعـد عـن الاشتراكية، مثل مطاب جمعية تأسيسية أكثـر ديمقراطيـة، ولكن لابد أن يكون واضحا أنه:

ليس هناك إمكانية لثـورة فـي إيطاليـا غيـر الثـورة الاشتراكية، إن الطبقة الوحيدة في البلاد الرأسمالية القـادرة على تحقيق تحول اجتماعي حقيقي وعميـق، هـي الطبقـة العاملة، على هذا الأساس ظل جرامشى، وحتى بعد انفصاله عن بورديجا وسياسته اليسارية المتطرفة، معاديا بشدة للتيار اليميني في الحزب الشيوعي والذي قاده تاسكا.

كان جرامشى مصرا على أنه من التشـاؤم والتحريفيـة الاعتقاد بأنه:

بما أن البروليتاريا لن تستطيع الإطاحة بالنظام قريبا فإن التكتيك الأفضل هو سلبية الطليعة الثوريـة وعـدم تـدخل الحزب الشيوعي في الصراع الرئيسـي المباشـر وبالتـالي السماح للبرجوازية باستخدام البروليتاريا كقوة انتخابية ضـد



الفاشية، هذا إن لم يكن حلف برجوازي - بروليتـارى مـن أجل التخاص دستوريا من الفاشية.

وتعبر عن هذا البرنامج المعادلة التي تقول أنه يجب على الحزب الشيوعي أن يكون الجناح اليسـاري لكـل القـوى المعارضة الراغبة في إسقاط النظام الفاشي.

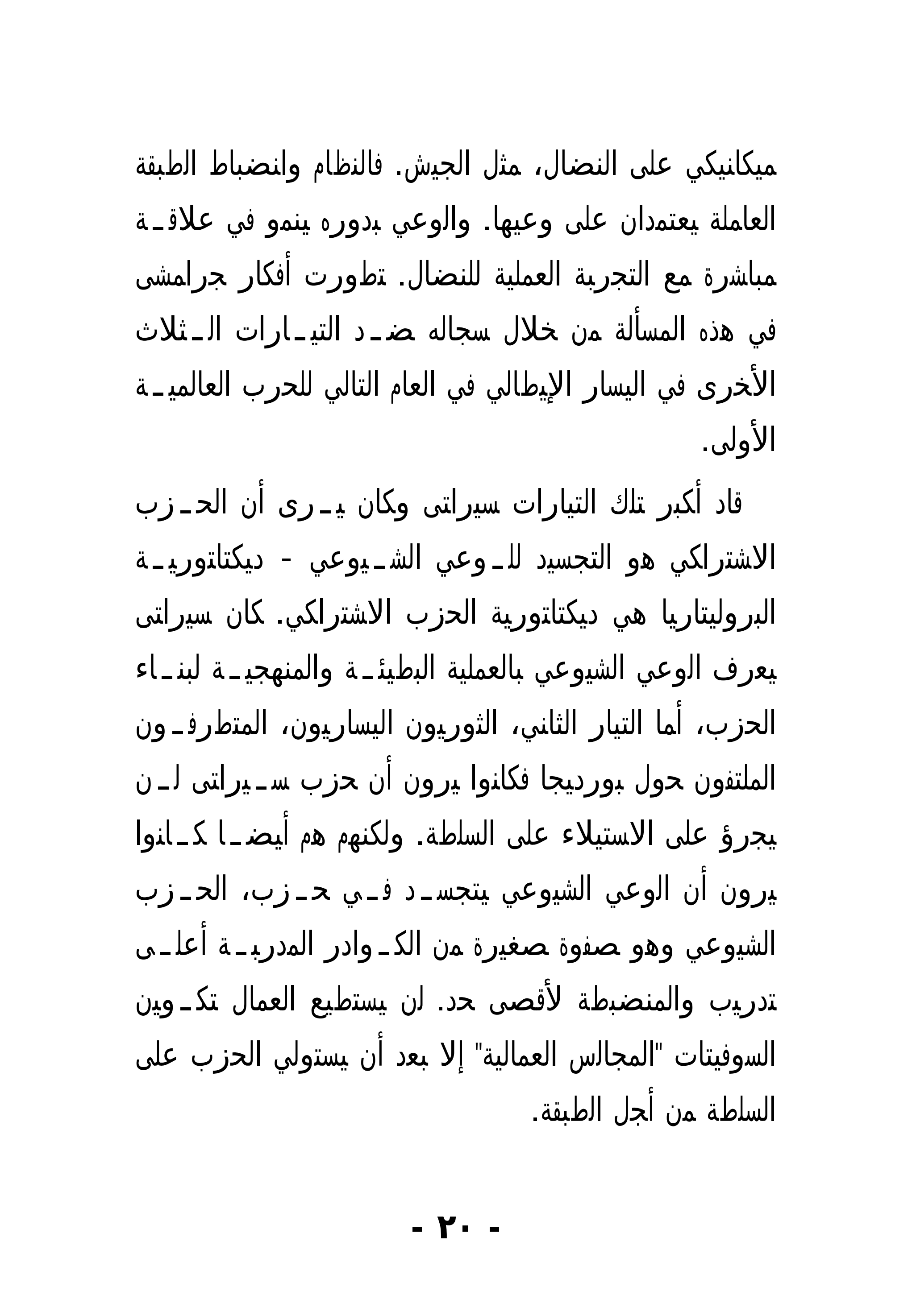
قال جرامشى أنه على الحزب الشيوعي أن يطرح بعض الشعارات الديمقراطيـة التـي تطرحهـا أيضـا الأحـزاب البرجوازية المعارضة ويكون هذا مـن أجـل فضـح هـذه الأحزاب من خلال اختبار الأفعال، أمـام الجمـاهير فتفقـد تأثيرها عليه، ما من شك أنه إذا كان جرامشى حيا اليوم لسن معجبيه الحاليين في الحزب الشيوعي الإيطـالي وأحـزاب الشيوعية الأوروبية لعدم تفهمه للحاجة "لتحالف ديمقراطـي واسع" "لكل القوى المناهضة للاحتكارية".

العفوية

إن أكثر المجالات تطورا فـي فكـر جرامشـى يتعلـق بالنضال من أجل وعى ثوري للطبقة العاملة. يبدأ جرامشـى بالإصرار على عدم إمكانية تدريب الطبقة العاملـة بشـكل

ميكانيكي على النضال، مثل الجيش. فالنظام وانضباط الطبقة العاملة يعتمدان على وعيها. والوعي بدوره ينمو في علاقـة مباشرة مع التجربة العملية للنضال. تطورت أفكار جرامشى في هذه المسألة من خلال سجاله ضـد التيـارات الـثلاث الأخرى في اليسار الإيطالي في العام التالي للحرب العالميـة الأولى.

قاد أكبر تلك التيارات سيراتى وكان يـرى أن الحـزب الاشتراكي هو التجسيد للـوعي الشـيوعي - ديكتاتوريـة البروليتاريا هي ديكتاتورية الحزب الاشتراكي. كان سيراتى يعرف الوعي الشيوعي بالعملية البطيئـة والمنهجيـة لبنـاء الحزب، أما التيار الثاني، الثوريون اليساريون، المتطرفـون الملتفون حول بورديجا فكانوا يرون أن حزب سـيراتى لـن يجرؤ على الاستيلاء على السلطة. ولكنهم هم أيضـا كـانوا يرون أن الوعي الشيوعي يتجسـد فـي حـزب، الحـزب الشيوعي وهو صفوة صغيرة من الكـوادر المدربـة أعلـى تدريب والمنضبطة لأقصى حد. لن يستطيع العمال تكـوين السوفيتات "المجالس العمالية" إلا بعد أن يستولي الحزب على السلطة من أجل الطبقة.



كان التيار الثالث، الجناح اليميني بقيادة تاسكا، يركز من جهة على تعليم العمال ومن جهة أخرى على عقد اتفاقات مع يسار قيادات النقابات العمالية، كانت هذه المجموعات الثلاث تشترك، على الرغم من الاختلافات بينهم في فكرة أن الوعي الشيوعي هو شئ يقذف به قيادات الحزب للعمال كما تقـذف الفتات للطيور.

كانت العوامل التي تحدد تطور وعـى العمـال بالنسـبة لجرامشى، على عكس تلك التيارات، هـي طبيعـة وقيـادة النضالات والمؤسسات المتطورة عفويا. لم يمثل السـوفييت بالنسبة لجرامشى، كمـا لـم يكـن يمثـل بالنسـبة للينـين وتروتسكى، شيء مجرد يصنعه الحزب في اللحظة المناسبة بل شئ يولد كأداة لنضال العمال في المصانع، ربما يولد في البداية حول مسألة غير مهمة جدا، فعلى سبيل المثال ننتجـت إحتلالات العمال للمصانع (الشبيهة بالانتفاضة) في سـبتمبر ١٩٢٠ عن فشل المفاوضات بين النقابة والإدارة حول اتفاقية أجور الهندسيين على المسـتوى القـومي. يجـب أن ينـتج السوفييت عن تنظيم يربط العمال بعضهم بـبعض، بغـض النظر عن حرفهم ونقابتهم، وبغض النظر عن كونهم أعضاء

في نقابات أم لا، تنظيم يربطهم في مكـان الإنتـاج، يوحـد نضالاتهم مع نضالات العمال الآخرين المرتبطين بهـم فـي عملية الإنتاج، تنظيم يعبر عن وعيهم المتنـامي بوحـدتهم وقوتهم وقدرتهم على السيطرة على الإنتاج، لم تظهر لجـان العمال في تورينو من فراغ. لقد بدأ تطورها كلجان داخليـة في المصانع ذات وظيفة شبيهة بمنظمات لجان العنابر فـي بريطانيا. كان جرامشى يرى أن دوره ورفاقه فـي جريـدة (العصر الجديد) التي كانوا يصدرونها في تورينو هو مساندة هذا التطور العفوي وتعميم هذه اللجـان الداخليـة وتوسـيع قواعدها، تشجيعها على الاستيلاء على السلطة أوسع وأكثـر من الإدارة، وأيضا على التوحد.

كما كتب جرامشى:

أصبحت مسألة تطور اللجان الداخلية هي المسألة الرئيسية بل كل الغرض من وجود العصر الجديد أصبحنا ننظر لهـا كالمسألة الجوهرية في الثورة العماليـة: مسـألة "التحـرر البروليتارى" بالنسبة لنا ولأنصارنا أصبحت (العصر الجديد) هي (جريدة) لجان المصانع. أحب العمال (العصر الجديـد) فلماذا أحبوها؟ لأنهم اكتشفوا في مقالاتها الجزء الأفضل من

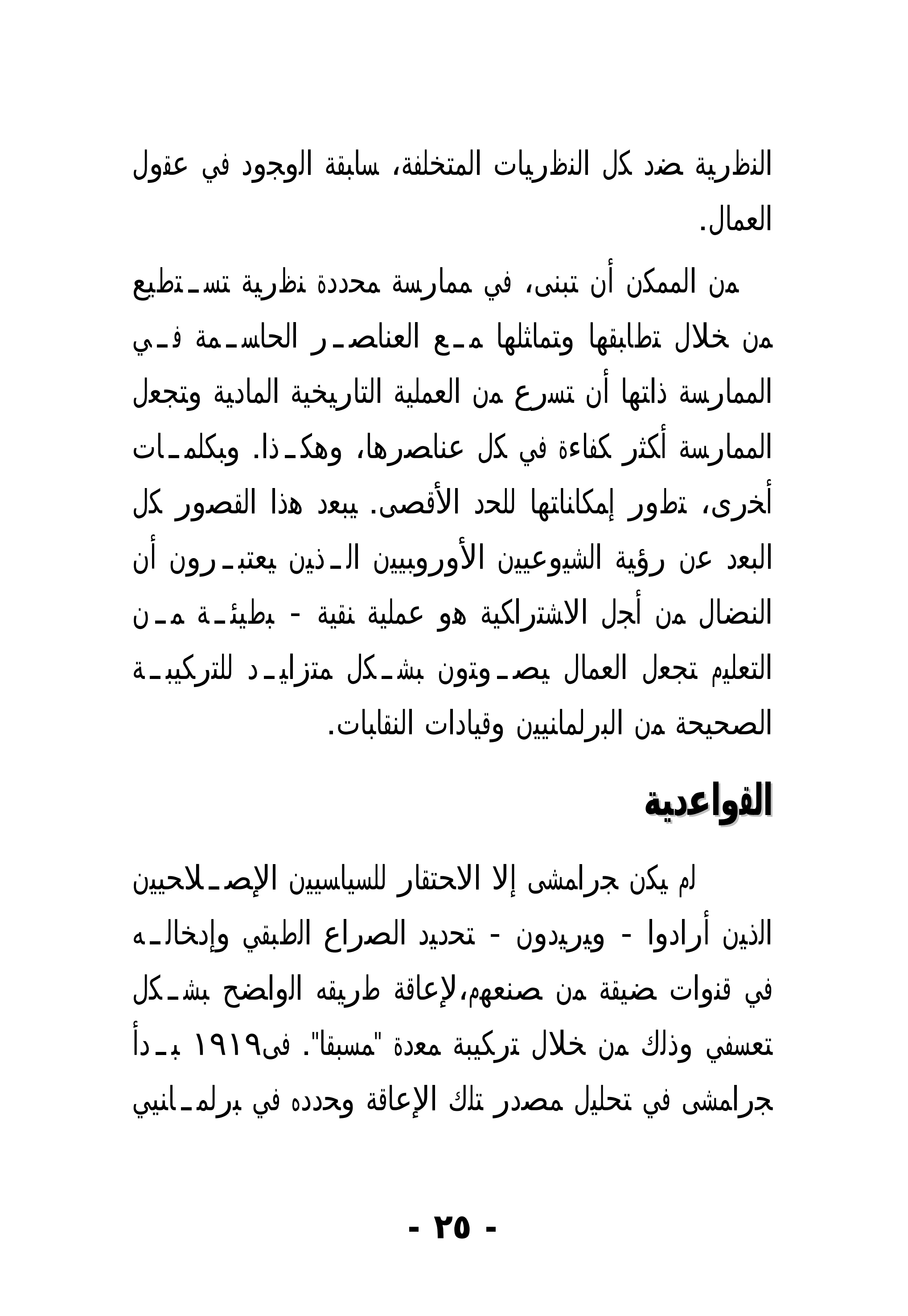
أنفسهم. لأنهم أحسوا أن مقالاتها تمتلئ بـنفس روح البحـث الذاتي التي كانوا يمرون بها: كيف يمكن أن نصبح أحرارا؟ كيف يمكن أن نصبح أنفسنا؟ لأن مقالاتها لم تكـن أعمـدة ثقافية باردة، بل نتيجة حواراتنا مع أفضل العمال لأنها كانت تعبر عن مشاعر وأهداف وآمال الطبقة العاملة في تورينـو. قمنا باستفزازها وتجربتها بأنفسنا، لأن مقالاتها كانت فعليـا "تدوين لوقائع حقيقية - وقائع ينظر إليها كلحظات في عملية تحرر داخلي وتعبير ذاتي من قبل الطبقة العاملة لهذا أحـب العمال "العصر الجديد" وهكذا (تشكلات) فكرتها.

عندما كتب جرامشى هذه السطور عـام ١٩٢٠ كـان لا يزال عضوا بالحزب الاشتراكي. لم يرى جرامشى إلا فـي أواخر ذلك العام وبعد هزيمة حركة احتلال المصانع الحاجة للانفصال عن الإصلاحية اليسارية وتكوين حـزب ثـوري متجانس. لذا كانت كتاباته عـن لجـان العمـال تفتقـد أي أطروحات واضحة عن كيفية عمل الحزب الثـوري بـداخل تلك اللجان، ومع ذلك فإن تلك الكتابات تركز على الأساليب التي لا بد أن يتبعها الثوريون والجريدة الثورية مـن أجـل الإمساك بالعناصر الجنينيـة للتنظـيم الشـيوعي والـوعي

الشيوعي في صعودهما العفوي، ولتعمـيم وتنسـيق هـذين (الوعي والتنظيم)- لجعل العمال واعيين بهما. عاد جرامشى لنفس المسألة في نقده الذاتي في ١٩٢٣ لسماحه لأفكـاره أن تدفن تحت دوجماتية بورديجا لمدة ثلاثة أعوام.

> لم نفهم الحزب كعملية جدلية تلتقي فيها الحركة العفوية للجماهير الثورية مـع الإرادة التنظيميـة والقياديـة للمركز. ولكننا فهمنا الحزب كشيء يطير في الهواء، يتطور من ذاته ولذاته، تصل إليـه الجمـاهير حـين يصبح وضعها ملائما لذلك حين تصل الموجة الثورية إلى قمتها.

إن بناء الحزب ليس مسألة حقن العمال بالأفكار من خلال الدعاية المجردة ولا هي مسألة الانتظار حتى يتحرك العمال تحت تأثير الأزمة الاقتصادية. إنها مسـألة الارتبـاط بكـل النضالات الجزئية العفوية ومحاول التعميم على أساها. عبر جرامشى عن نفس هذا الرأي في (مذكرات السجن) ولكـن باللغة الأكثر تحديدا لتلك المذكرات - حيث كتـب فيهـا أن مهمة الحزب هي استخلاص عناصر (النظرية) الموجـودة ضمنيا في النضال الجماعي للطبقة العاملـة. وطـرح هـذه



النظرية ضد كل النظريات المتخلفة، سابقة الوجود في عقول العمال.

من الممكن أن تبنى، في ممارسة محددة نظرية تستطيع من خلال تطابقها وتماثلها مع العناصر الحاسمة في الممارسة ذاتها أن تسرع من العملية التاريخية المادية وتجعل الممارسة أكثر كفاءة في كل عناصرها، وهكذا. وبكلمات أخرى، تطور إمكاناتها للحد الأقصى. يبعد هذا القصور كل البعد عن رؤية الشيوعيين الأوروبيين الذين يعتبرون أن النضال من أجل الاشتراكية هو عملية نقية - بطيئة من التعليم تجعل العمال يصوتون بشكل متزايد للتركيبة الصحيحة من البرلمانيين وقيادات النقابات.

القواعدية

لم يكن جرامشى إلا الاحتقار للسياسيين الإصلاحيين الذين أرادوا - ويريدون - تحديد الصراع الطبقي وإدخاله في قنوات ضيقة من صنعهم،لإعاقة طريقه الواضح بشكل تعسفي وذلك من خلال تركيبة معدة "مسبقا". فى١٩١٩ بدأ جرامشى في تحليل مصدر تلك الإعاقة وحدده في برلماني

الحزب الاشتراكي وبيروقراطـي النقابـات. وشـدد علـى الاغتراب الذي يشعر به الكثير من العمـال تجـاه نقابـاتهم وذهب يحلل أصول هذه الظاهرة في أن النقابات تعمل مـن أجل كسب الإصلاحات بداخل الرأسمالية ويتم بناء وهيكلـة تلك النقابات على هذا الأسـاس. إن النقابـات نوعيـة مـن التنظيمات البروليتارية الخاصة بالفترة التاريخية التي يهيمن فيها رأس المال.... في تلك الفترة التي يقيم فيها الأفراد على أساس ملكيتهم للسلع وتجارتهم في ملكيتهم ويصبح العمـال أيضا تجار في السـلعة الوحيـدة التـي يملكونهـا- قـوة عملهم...لقد خلقوا هذه الأجهزة الضخمة لتركيز العمل الحي وتحديد الأسعار وساعات العمل وتنظيم السوق.إن للنقابـات، بالأساس، طبيعة تنافسية وليس شيوعية.ولا يمكن أن تكـون أداة لإعادة البناء الراديكالي للمجتمع.وهكذا ظهرت شـريحة من المسئولين النقابيين ذات سيكولوجيا جماعيـة متناقضـة تماما مع سيكولوجيا العمال.

دفع هذا التحليل وتجربة لجان المصانع بتورينو جرامشى لأن يعتبر، بشكل متصاعد بيروقراطية النقابـات كمخـرب فعال للصراع الطبقي، يـرى المسـئول النقـابي الشـريحة

الصناعية كوضع دائم. وكثيرا ما يدافع عن نفـس موقـف المالك.

أصبح جرامشى، بعد خيانة ١٩٢٠، واعيا تماما بالـدور المعادى للثورة الذي تقوم به قيادات النقابات.

تصادم الإضراب العام بتورينو وبيمونت بشكل مباشر مع تخريب ومقاومة التنظيم النقابي... وقد أوضـح الإضـراب العام الحاجة العاجلة لمحاربة الجهاز البيروقراطي للنقابـات والذي يشكل الحصن الصلب للنشاطات الانتهازية للبرلمانيين والإصلاحيين الذين يستهدفون خنق كل المبادرات الثوريـة للطبقة العاملة.

كتب جرامشى في أطروحات ليون أنه:

لابد أن تفهم المجموعة التي قـادت كونفدراليـة العمـل (الاتحاد النقابي الرئيسي في إيطاليا في أوائل العشـرينيات) من وجهة النظر هذه، أي كأداة لتفتيت الطبقة العاملة من قبل طبقات أخرى.

لم يتخل جرامشى (مذكرات السجن) عن هـذه المواقـف "غير الناضجة" (العمالوية) و(القواعدية). فقـد كتـب فـي ١٩٣٠:

إن إهمال أو احتقار الحركات المسماة بالعفوية، أي الفشل في إعطاء تلك الحركات قيادة واعية ورفعها لمستوى أعلـى من خلال إدماجها في السياسة، عادة ما يكون لـه عواقـب وخيمة جداً.

وقد ربط جرامشى بين هزيمـة ١٩٢٠، والتـي مهـدت الطريق أمام انقلاب موسولينى في عام ١٩٢٢، وبين فشـل سيراتى وبورديجا وتاسكا في تقديم تلك القيـادة للحركـات العفوية للعمال والفلاحين:

كلما حدثت حركة (عفوية) للطبقات (الـدنيا) (الجمـاهير العاملة) ترافقها في كل المرات تقريبا حركة رجعية للجنـاح اليميني للطبقة الحاكمة لنفس الأسباب. فمثلا، تـؤدى أزمـة اقتصادية، من جهة، لسخط الطبقات (الدنيا) وحركات عفوية، ومن الجهة الأخرى إلى مؤامرات للمجموعات الرجعية التي تستغل الإضعاف الموضوعى الذي يحدث للحكومة وذلك في محاولة للانقلاب.

لابد أن نرى في أهـم أسـباب تلـك الانقلابـات فشـل المجموعات المسئولة (الحزب الاشتراكي) في تقديم أي قيادة واعية للتمردات العفوية أو تحويلهـا إلـى عامـل سياسـي إيجابي.

لم يكن جرامشى، بالطبع، عمالوى، أو عفوي، أو قواعدي بالمعنى المباشر لتلك الكلمات، أي بمعنى التقليل مـن شـأن الدور التدخلى للماركسيين في الصراع الطبقي. العكس هـو الصحيح، فقد كان نشاطه فـي ١٩١٩- ١٩٢٠، و١٩٢٤- ١٩٢٦،مثالا رائعا، على الرغم من أخطائه بالطبع على هذا التدخل.

الأطروحة الأساسية

إن التحريفات الإصلاحية لفكر جرامشـى مبنيـة علـى الأطروحة المثالية:يقال أن جرامشى كان يرى اختلافا كبيرا بين المجتمعات الغربية وروسيا القيصـرية. تعتمـد سـلطة الطبقة الحاكمة في الغرب، ليس علـى السـيطرة الماديـة المباشرة من خلال الجهاز العسكري – البوليسي - بل على سيطرتها الأيديولوجية التي تمارسها من خلال شـبكة مـن

المؤسسات الاختيارية التي تنتشر في (المجتمع المـدني) - الأحزاب السياسية، النقابات، الكنـائس ووسـائل الإعـلام. ويعتبر جهاز الدولة القمعي فقط أحد العديد من وسائل دفـاع المجتمع الرأسمالي.

يستنتج من كل هذا أن النضال الرئيسي للثـوريين لـيس الهجوم المباشر على السلطة السياسية، بل النضال من أجـل السيطرة الأيديولوجية، ما أسماه جرامشى بـ (الهيمنة).

تكتسب هذه الهيمنة من خلال عمليـة طويلـة تسـتغرق سنوات عديدة وتتطلب قدرا هائلا من الصبر والتضحيات من جانب الطبقة العاملة. وبالذات لن تستطيع الطبقة العاملـة أن تصبح صاحبة(هيمنة) مضادة إلا من خلال كسب القطاعات الرئيسية من المثقفين والطبقات التي يمثلونها بسـبب الـدور الحاسم الذي يلعبونه في تشغيل أجهزة السيطرة الأيديولوجية. لابد أن تكون الطبقة العاملة مستعدة للتضـحية بمصـالحها الاقتصادية قصيرة المدى من أجل هـذا الهـدف. وإلـى أن يتحقق ذلك الهدف، أي إلى أن تصبح الطبقة العاملـة هـي المهيمنة، سيكون مصير أي محاولات للاستيلاء على السلطة السياسية الهزيمة.

تم تبرير هذا الموقف بالزعم بأنه مبنى على أساس الفرق الذي تحدث عنه جرامشى في (مذكرات السجن) بين نوعين من الحرب:

حرب المناورات: وهى تتضمن تحركات سريعة للجيوش المتحاربة بدفعات قوية للأمام وللخاف كلمـا حـاول أحـد الطرفين الاستيلاء على مواقع ومدن الطرف الآخر.

حرب المواقع: وهو صراع طويـل المـدى يشـل فيـه الجيشان بعضهما البعض في المعركة، ولا يستطيع أي منهما التقدم، مثل حرب الخنادق (١٩١٤ - ١٩١٨).

يؤكد الخبراء العسكريون أنه في حروب الـدول الأكثـر تقدماً صناعياً واجتماعياً تعد وظيفة حرب المناورات تكتيكية أكثر منها استراتيجية يجب أن يتم هذا أيضا في فـن وعلـم السياسة على الأقل في أكثر الـدول تقـدما، حيـث أصـبح (المجتمع المدني) بناءا شديد التعقيد محصن بدرجـة كبيـرة ضد (عواقب) الكوارث الاقتصـادية المباشـرة (الأزمـات، الكساد،...،الخ).

كانت آخر تجربة ناجحـة - لحـرب المنـاورات - أي الهجوم الأمامي المباشر على الدولة - هي ثـورة أكتـوبر ١٩١٧:

يبدو لي أن إليتش (لينين) فهم ضرورة التحول من حرب المناورات، التي طبقت بنجاح في الشرق فـي ١٩١٧، إلـى حرب المواقع والتي كانت الشكل الوحيد الممكن في الغرب.

كان أساس هذا التحول في الإستراتيجية هو الاختلاف بين الأبنية الاجتماعية بين روسيا القيصرية و أوروبا الغربية:

كانت الدولة في روسيا هي كـل شـئ، أمـا (المجتمـع المدني) فكان بدائياً وهلامياً... في الغرب عندما كانت الدولة تهتز كان يظهر في الحال المجتمع المدني ببنيته القوية، لـم تكن الدولة إلا حاجز أمامي يقف أمامه نظام قوى من القلاع و الخنادق.

إن معادلة الثورة الدائمة تنتمي للفترة التاريخية التي سبقت ظهور الأحزاب السياسية الجماهيريـة العظيمـة والنقابـات الاقتصادية العظيمة حين كان المجتمع لا يـزال فـي حالـة سيولة من أوجه كثيرة... في فترة ما بعد ١٨٧٠.. أصبحت العلاقات التنظيمية الداخلية والخارجية للدولة أكثـر تعقيـدا

وضخامة وحدث توسيع وتخطى معادلة (الثورة الدائمة) (كان ماركس قد تبنى هذا الشعار بعد ثـورة ١٨٤٨) فـي علـم السياسة بمعادلة (الهيمنة المدنية).

لا يجب أن تقبل صياغات جرامشى هذه بشكل غير نقدي، كما سأوضح، فيما يلي، ولكن يجب أولا أن يوضح أنهـا لا تسمح أبدا باستنتاجات إصلاحية،

أولاً: حرب المواقع هي حرب وليست تعاونا طبقيا مثـل الذي يقوم به الحزب الشيوعي الإيطالي اليوم.

لم يتزحزح احتقـار جرامشـى للإصـلاحيين المنـادين بالتعاون الطبقي ولو شبرا واحدا في أثناء فترة السجن. قارن جرامشى سلبية الإصلاحيين بالقندس الذي يطارده الصيادون يريدون خصيتيه لاستخراج دواء طبي منهما، فينتزع القندس خصيتيه بنفسه ويعطيهما للصيادين لينقذ حياته (يجب علـى بعض القيادات النقابية اليسارية أن تتذكر جيدا هذا التشبيه!).

ثانياً: لا يعتبر من الوعي المدهش بشـيء القـول بـأن الممارسة السياسية الثورية ستقضى معظم الوقت في حـرب المواقع. فقد دافع لينين وتروتسكى في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية عن ضرورة أن تشترك الأحزاب الشـيوعية فـي

جبهات متحدة مع الأحزاب الإصلاحية تكسب أغلبية الطبقـة العاملة للشيوعية، وذلك استنادا لتجربة البلاشفة الروس فـي الجبهات المتحدة. حارب لينين وتروتسكى بشدة ضد (نظرية الهجوم) اليسارية المتطرفة التي كانت منتشـرة فـي ذلـك الوقت، بالذات في الحزب الشيوعي الألمـاني - فكـرة أن الأحزاب الشيوعية تسـتطيع ببسـاطة أن تتقـدم للعاصـمة للاستيلاء على الساطة بدون تأييد أغلبية الطبقة ويتم ذلك من خلال مغامرات انتفاضية متكررة.

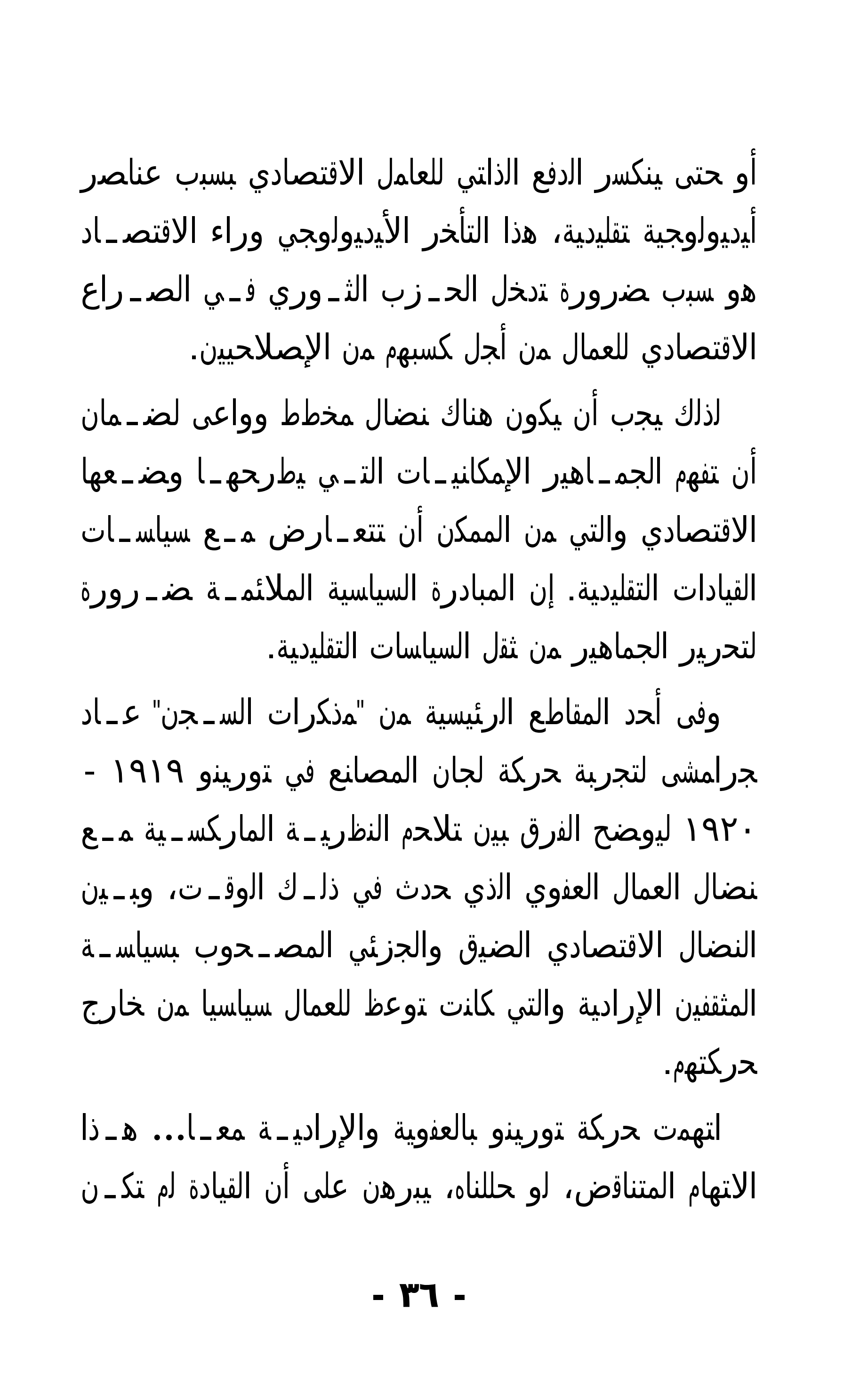
وقد اعترف جرامشى بدور تروتسكى فـي تغييـر خـط الأممية الشيوعية في اتجاه تكتيك الجبهات المتحدة. كما طابق جرامشى صراحة بين (حرب المواقع) و (معادلـة الجبهـة المتحدة) حاول جرامشى في أطروحات ليون تطبيق تكتيـك الجبهة المتحدة على إيطاليا. ولم يعبر تبنى جرامشـى لهـذا التكتيك عن حدوث أي ضعف في عداء جرامشى المسـتحكم للإصلاحيين. كتب جرامشى عن تكتيـك الجبهـة المتحـدة كنشـاط سياسـي (منـاورة) مصـممة لكشـف الأحـزاب والمجموعات المسماة بالبروليتارية والثوريـة ذات القاعـدة الجماهيرية. يتم تبنى هذا التكتيك في مواجهـة التشـكيلات

الوسيطة التي يحاربها الحزب الشيوعي كمعوقات في طريق التحضير الثوري للبروليتاريا.

ثالثاً: إن معركة الهيمنة ليست معركة أيديولوجية فحسب. من الصحيح أن جرامشى يرفض باستمرار مقولة أن الاستياء في أحوال العمال يؤدى مباشرة إلى الوعي الثوري.

يشدد جرامشى على هذه النقطة لأنه يريد في (مـذكرات السجن) أن يدحض أطروحة "الفترة الثالثة" الستالينية، التـي ظهرت في ذلك الوقت، القائلة بأن الأزمة العالميـة وحـدها ستؤدى للثورة العالمية، يلوى جرامشى العصا ليواجـه هـذا الانحراف الميكانيكي عن الماركسية، لم يذكر جرامشى أبـدا الدور الذي يلعبه الاقتصاد في الحيـاة السياسـية، فمـع أن الأزمات الاقتصادية في حد ذاتها لا تنتج الأحداث التاريخية المهمة، فمن الممكن أن تخلق البيئة الملائمة لنشـر أنمـاط فكرية معينة لطرح وحل مسائل تتعلق بالتطور التالي كله في الحياة القومية.

وحدد العلاقة بين الاقتصاد والأيديولوجيا بهذه العبارات: "دائما تتأخر العوامل الأيديولوجية المهمـة وراء الظـواهر الاقتصادية المهمة، ولذا ففي لحظات معينة يتباطأ أو يعـوق



أو حتى ينكسر الدفع الذاتي للعامل الاقتصادي بسبب عناصر أيديولوجية تقليدية، هذا التأخر الأيديولوجي وراء الاقتصاد هو سبب ضرورة تدخل الحزب الثوري في الصراع الاقتصادي للعمال من أجل كسبهم من الإصلاحيين.

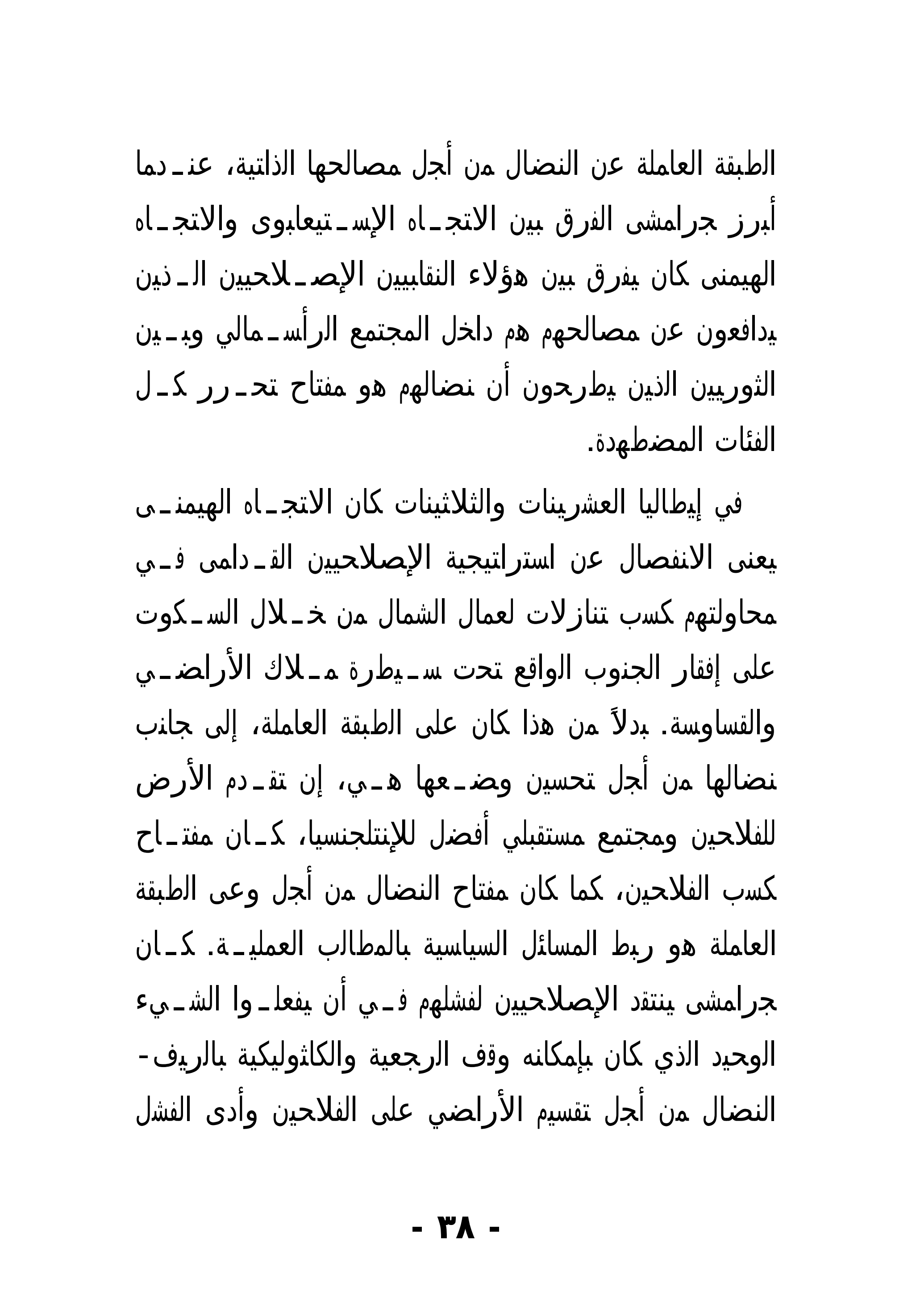
لذلك يجب أن يكون هناك نضال مخطط وواعى لضمان أن تفهم الجماهير الإمكانيات التي يطرحها وضعها الاقتصادي والتي من الممكن أن تتعارض مع سياسات القيادات التقليدية. إن المبادرة السياسية الملائمة ضرورة لتحرير الجماهير من ثقل السياسات التقليدية.

وفى أحد المقاطع الرئيسية من "مذكرات السجن" عاد جرامشى لتجربة حركة لجان المصانع في تورينو ١٩١٩ - ١٩٢٠ ليوضح الفرق بين تلاحم النظرية الماركسية مع نضال العمال العفوي الذي حدث في ذلك الوقت، وبين النضال الاقتصادي الضيق والجزئي المصحوب بسياسة المثقفين الإرادية والتي كانت توعظ للعمال سياسيا من خارج حركتهم.

اتهمت حركة تورينو بالعفوية والإرادية معا... هذا الاتهام المتناقض، لو حللناه، يبرهن على أن القيادة لم تكن

"مجردة"، لم تكن تردد مقولات علمية أو نظرية، ولم تخلـط بين السياسة، أي الفعل الحقيقي، والطـرح النظـري. فقـد توجهت لأناس حقيقيين تكونوا من خلال علاقـات تاريخيـة محددة، بمشاعر وتصورات محددة وبمفاهيم مجزئـة عـن العالم، الخ، تلك التي جاءت نتيجة لتشابك عفوي لحالة معينة من الإنتاج المادي مع تجمع "عرضي" لعناصـر اجتماعيـة مختلفة. لم يتم إهمال أو احتقار هذا العنصر العفوي بل تـم تثقيفه وتوجيهه وتنقيته من العوامل الخارجية... كان الهدف هو تطويره في اتجاه النظرية الحديثة (الماركسـية) ولكـن بأسلوب حي وفعال تاريخيا. تحدثت القيـادات نفسـها عـن منشط، عامل توجيه، وكان فوق كل شئ إنكـار لفكـرة أن الحركة اعتباطية أو مشروع مجهز بشكل مسبق، كان التشديد هنا على الضرورة التاريخية للحركـة، أعطـت القيـادات للجماهير وعى "نظري" لكونهم قـيم مؤسسـية وتاريخيـة، لكونهم مؤسسين لدولة جديدة، هذه الوحدة بين العفوية والقيادة الواعية هي بالضبط الفعل السياسي الحقيقي للطبقات التحتية.

رابعاً: لا يعنى النضال من أجل كسب الطبقات المضطهدة الأخرى (أو الشرائح المتأخرة في الطبقة العاملة) أن تتخلـى



الطبقة العاملة عن النضال من أجل مصالحها الذاتية، عندما أبرز جرامشى الفرق بين الاتجاه الإستيعابوى والاتجاه الهيمنى كان يفرق بين هؤلاء النقابيين الإصلاحيين الذين يدافعون عن مصالحهم هم داخل المجتمع الرأسمالي وبين الثوريين الذين يطرحون أن نضالهم هو مفتاح تحرر كل الفئات المضطهدة.

في إيطاليا العشرينات والثلاثينات كان الاتجاه الهيمنى يعنى الانفصال عن استراتيجية الإصلاحيين القدامى في محاولتهم كسب تنازلات لعمال الشمال من خلال السكوت على إفقار الجنوب الواقع تحت سيطرة ملاك الأراضي والقساوسة. بدلاً من هذا كان على الطبقة العاملة، إلى جانب نضالها من أجل تحسين وضعها هي، إن تقدم الأرض للفلاحين ومجتمع مستقبلي أفضل للإنتلجنسيا، كان مفتاح كسب الفلاحين، كما كان مفتاح النضال من أجل وعى الطبقة العاملة هو ربط المسائل السياسية بالمطالب العملية. كان جرامشى ينتقد الإصلاحيين لفشلهم في أن يفعلوا الشيء الوحيد الذي كان بإمكانه وقف الرجعية والكاثوليكية بالريف- النضال من أجل تقسيم الأراضي على الفلاحين وأدى الفشل

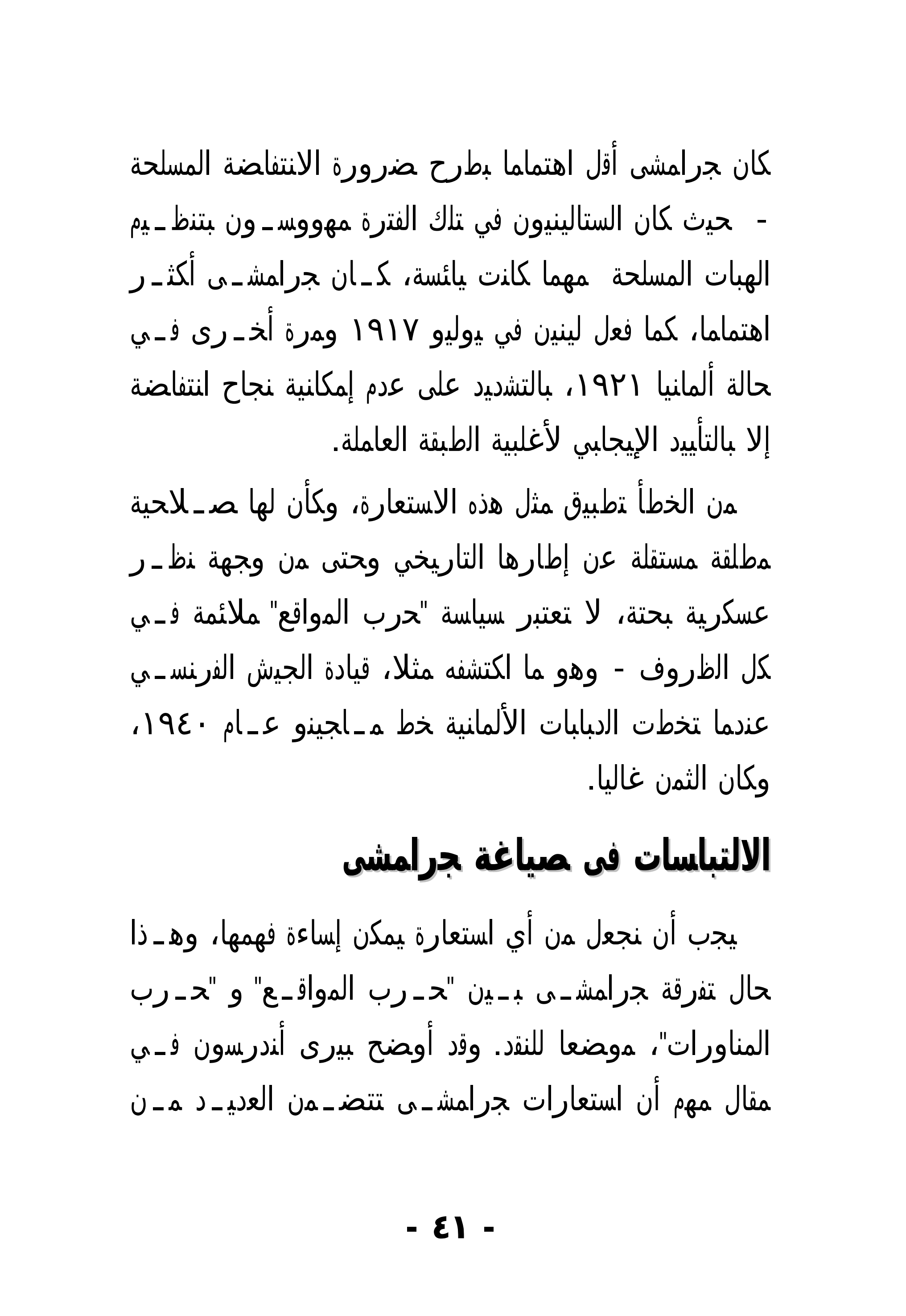
في حل المسألة الزراعية لاستحالة حـل المسـألة الرجعيـة الدينية.

ليس هناك ما يدل في (مذكرات السجن) على أن جرامشى تخلى عن موقفه في أطروحات ليون بأن علـى العمـال أن يبذلوا جهدا كبيرا لكسب الفلاحين وأن هذا لن يكون ممكنـا إلى من خلال بناء لجـان عماليـة علـى أسـاس الموقـع الاقتصادي للعمال في المصانع واستخدام تلك اللجـان فـي تشجيع الفلاحين على تكوين لجانهم الخاصة. المثير للاهتمام هنا هو رغم أن جرامشى تحدث عن "التكـتلات الحاكمـة" وشدد على الحاجة لأن تكسب الطبقة العاملة الفلاحين، إلا أنه لم يستخدم التعبير الستالينى الشائع "كتل العمال والفلاحـين". كما أنه لم يعتبر مثقفي الطبقة الوسطى حليفا متكـافئ مـع الطبقة العاملة.

خامساً: وأخيرا لم يقل جرامشى أبدا في "مذكرات السجن" أن النضال من أجل الهيمنة يمكن وحده أن يحل مسألة سلطة الدولة. حتى في الفترات التي تلعب فيها حرب المواقع الدور الرئيسي يتحدث جرامشى عنهـا كعنصـر "جزئـي" فـي

الحركة، وعن أن حرب المناورات تلعب دورا تكتيكيا أكثـر منه استراتيجيا.

لنطرح هذه النقطة بأسلوب مختلف: في أغلـب الأحيـان يكون الثوريون مندمجين في نضال أيديولوجي مسـتخدمين تكتيل الجبهة المتحدة في نضالات جزئية لكسب القيادة مـن الإصلاحيين. ولكن توجد لحظات متكـررة مـن المواجهـة العنيفة حين يحاول أحد الطرفين - العمال أو الطبقة الحاكمة - اقتحام خنادق الطرف الآخـر بهجـوم مباشـر. ظلـت الانتفاضة المسلحة بالنسبة لجرامشى، كما أوضح هـو فـي محادثاته في السجن "اللحظة الحاسمة من الصراع" لابد مـن وضع مسألة التشديد على حرب المواقع في "مذكرات السجن" في إطارها التاريخي. إنها استعارة صممت للتأكيد على نقطة أساسية ملموسة - وهى أن الإرادة الثورية لبضعة آلاف من الثوريين وقت الأزمة لا تخلق الشروط الضرورية لانتفاضة ناجحة. لابد من إعداد هذه الشروط من خلال عملية طويلـة من التدخل السياسي والنضال الأيديولوجي. إن الاعتقاد بغير ذلك، كما فعل توليياتى وآخرون من ستالينى "الفترة الثالثـة" في أوائل الثلاثينات، كان محض جنون في تلك الظـروف،



كان جرامشى أقل اهتماما بطرح ضرورة الانتفاضة المسلحة - حيث كان الستالينيون في تلك الفترة مهووسـون بتنظـيم الهبات المسلحة مهما كانت يائسة، كـان جرامشـى أكثـر اهتماما، كما فعل لينين في يوليو ١٩١٧ ومرة أخـرى فـي حالة ألمانيا ١٩٢١، بالتشديد على عدم إمكانية نجاح انتفاضة إلا بالتأييد الإيجابي لأغلبية الطبقة العاملة.

من الخطأ تطبيق مثل هذه الاستعارة، وكأن لها صـلاحية مطلقة مستقلة عن إطارها التاريخي وحتى من وجهة نظـر عسكرية بحتة، لا تعتبر سياسة "حرب المواقع" ملائمة فـي كل الظروف - وهو ما اكتشفه مثلا، قيادة الجيش الفرنسـي عندما تخطت الدبابات الألمانية خط مـاجينو عـام ١٩٤٠، وكان الثمن غاليا.

الالتباسات فى صياغة جرامشى

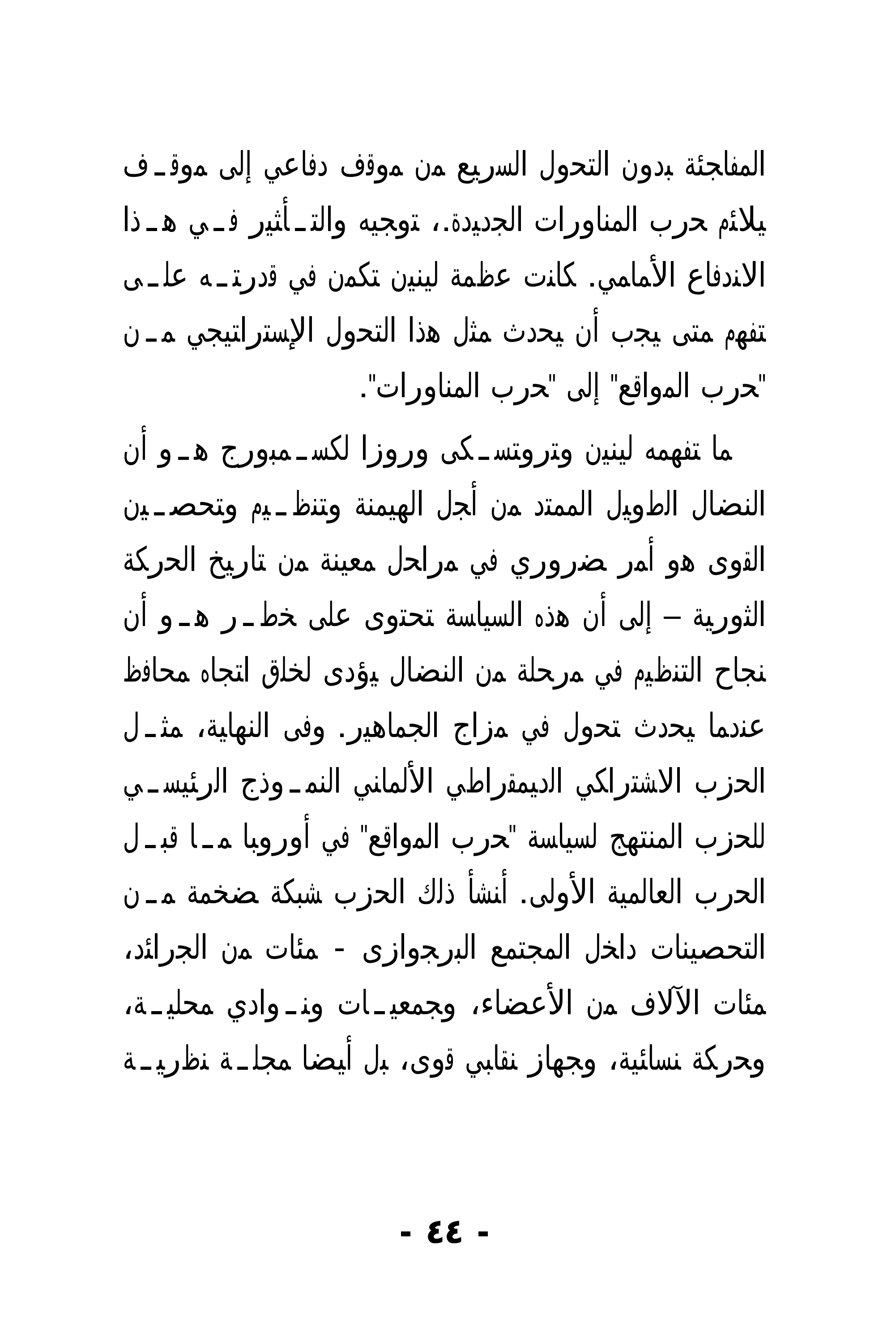
يجب أن نجعل من أي استعارة يمكن إساءة فهمها، وهـذا حال تفرقة جرامشـى بـين "حـرب المواقـع" و "حـرب المناورات"، موضعا للنقد. وقد أوضح بيرى أندرسون فـي مقال مهم أن استعارات جرامشـى تتضـمن العديـد مـن

الإلتباسات والتناقضات، تتضمن انزلاق مفاهيمي يصلح لأن يستخدمه الإصلاحيون في تشويش الجوهر الثوري لأعمال جرامشى. يتضح بالتأكيد من كل الحديث السابق أنه يوجد في تفرقة جرامشى بين "حرب المواقع" و"حرب المناورات" درجة من الغموض، ففي مرة يحدث الانتقال من سياسة حرب المواقع بعد ١٩١٧ لكن في أخرى يحدث هذا الانتقال في فترة ما بعد استقرار الاقتصاد الرأسمالي العالمي في أوائل العشرينات... هذا الالتباس حول التوقيت مهم لأنه يترك مسألة ما إذا كانت "حرب المواقع" استراتيجية أبدية أم أنها مناسبة فقط في فترات تاريخية محددة بدون حل. إن بعض صياغات جرامشى ترجح التفسير الأول، ولكن إصرار جرامشى المتكرر على التفاعل بين الحزب الثوري و"النضالات العفوية" الطبقية وإيمانه بضرورة الانتفاضة المسلحة يجعلانا نستبعد بشكل قاطع صحة التفسير الأول ونرجح الثاني.

نجد الالتباس الثاني في مسألة تفرقة جرامشى بين روسيا والغرب. تقوم هذه التفرقة على تحليل خاطئ للحركة الثورية الروسية، ففي الواقع، كانت التجارب الأولى لحرب

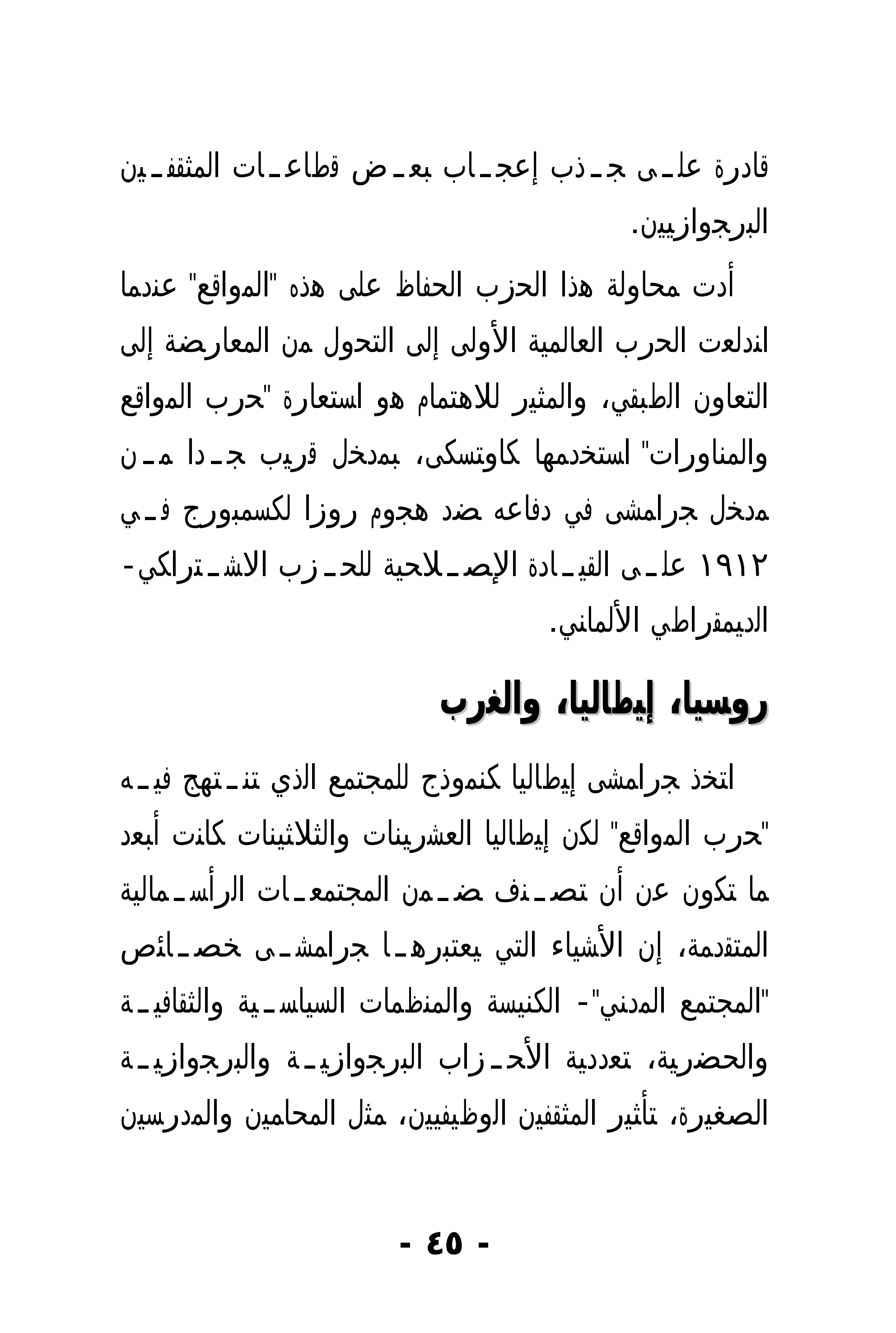
المناورات فاشلة –تماما- مثل الهجوم المسلح على القيصـر من قبل الديسمبريين في عشرينات القـرن الـ ـ١٩ ومثـل هجمات الشعبويين الذين استطاعوا اغتيـال القيصـر فـي ١٨٨١. كان على الأجيال التالية مـن الثـوريين أن تتبنـى استراتيجية مختلفة. إسقاط النظام القيصري "حرب المواقـع" طويلة المدى –عشر سنوات من حلقات النقـاش الماركسـية وعشر سنوات أخرى من التحريض الإقتصـادوى، وذلـك لتجميع القوى، كانت حرب المواقع هذه ضرورية لتحضـير المجال لـ "حرب المناورات" في ١٩٠٥ - ١٩٠٦ ثم فـي ١٩١٧.

وإذا طورنا استعارة جرامشى نجد أن "حرب المواقع" تلك تفقد سبب وجودها وتصبح غير ضرورية متى اكتشف سلاح جديد يستطيع أن يخترق دفاعات الآخر - مثل الدبابـة فـي أواخر الحرب العالمية الأولى (رغم أنها لم تسـتخدم بشـكل مجد) وفى بداية الحرب العالمية الثانية، إن المعادل السياسي للدبابة هو "قوة دفع الجماهير من أسفل" هذه القوة العفويـة، الثورية، المفاجئة... والتي فاجأت حتى لينين فـي فبرايـر ١٩١٧. لا يستطيع الثوريون التكيف مـع هـذه التغيـرات



المفاجئة بدون التحول السريع من موقف دفاعي إلى موقـف يلائم حرب المناورات الجديدة.، توجيه والتـأثير فـي هـذا الاندفاع الأمامي. كانت عظمة لينين تكمن في قدرتـه علـى تفهم متى يجب أن يحدث مثل هذا التحول الإستراتيجي مـن "حرب المواقع" إلى "حرب المناورات".

ما تفهمه لينين وتروتسـكى وروزا لكسـمبورج هـو أن النضال الطويل الممتد من أجل الهيمنة وتنظـيم وتحصـين القوى هو أمر ضروري في مراحل معينة من تاريخ الحركة الثورية – إلى أن هذه السياسة تحتوى على خطـر هـو أن نجاح التنظيم في مرحلة من النضال يؤدى لخلق اتجاه محافظ عندما يحدث تحول في مزاج الجماهير. وفى النهاية، مثـل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني النمـوذج الرئيسـي للحزب المنتهج لسياسة "حرب المواقع" في أوروبا مـا قبـل الحرب العالمية الأولى. أنشأ ذلك الحزب شبكة ضخمة مـن التحصينات داخل المجتمع البرجوازى - مئات من الجرائد، مئات الآلاف من الأعضاء، وجمعيـات ونـوادي محليـة، وحركة نسائية، وجهاز نقابي قوى، بل أيضا مجلـة نظريـة

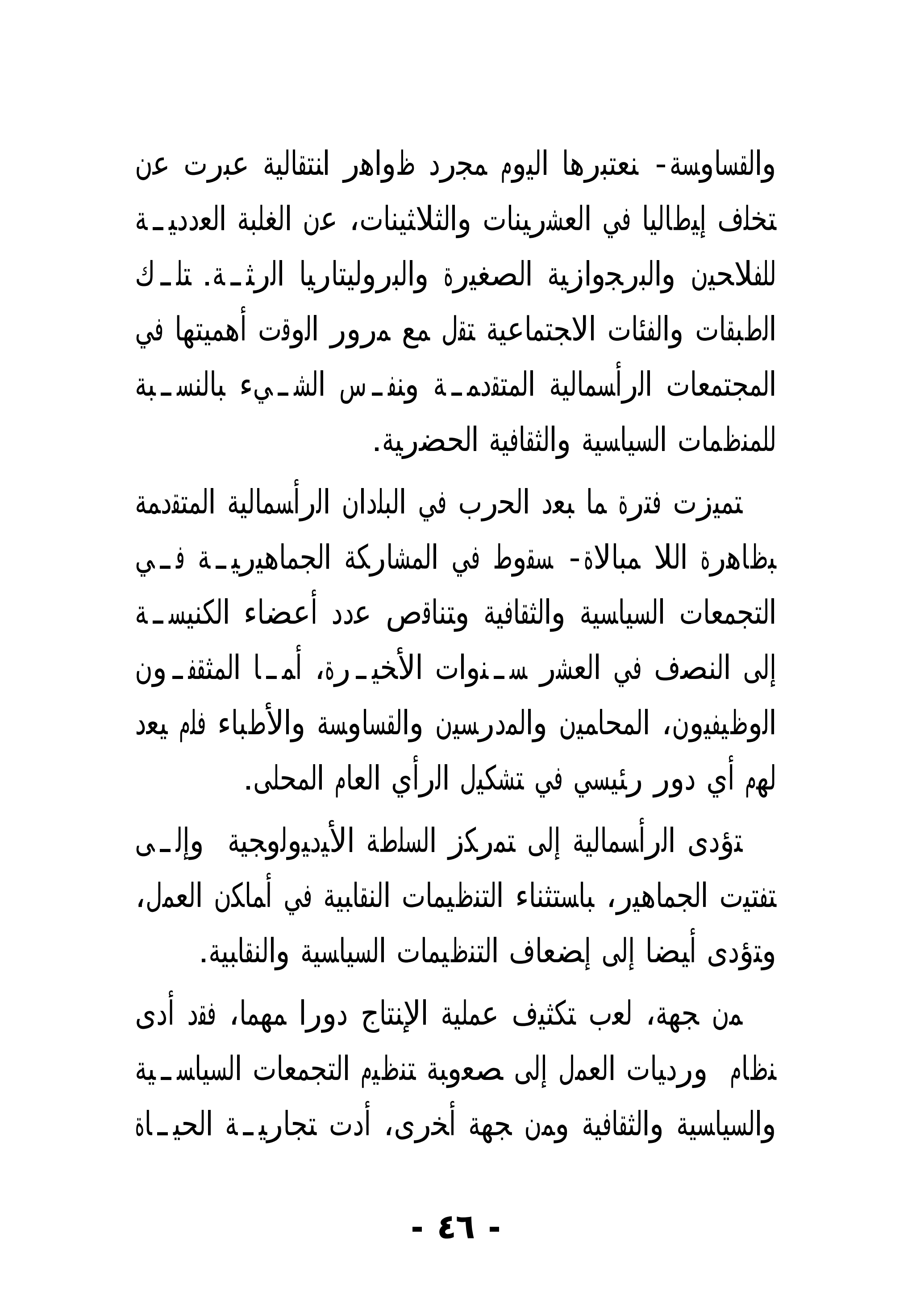


قادرة علـى جـذب إعجـاب بعـض قطاعـات المثقفـين البرجوازيين.

أدت محاولة هذا الحزب الحفاظ على هذه "المواقع" عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى إلى التحول من المعارضة إلى التعاون الطبقي، والمثير للاهتمام هو استعارة "حرب المواقع والمناورات" استخدمها كاوتسكى، بمدخل قريب جـدا مـن مدخل جرامشى في دفاعه ضد هجوم روزا لكسمبورج فـي ١٩١٢ علـى القيـادة الإصـلاحية للحـزب الاشـتراكي- الديمقراطي الألماني.

روسيا، إيطاليا، والغرب

اتخذ جرامشى إيطاليا كنموذج للمجتمع الذي تنـتهج فيـه "حرب المواقع" لكن إيطاليا العشرينات والثلاثينات كانت أبعد ما تكون عن أن تصـنف ضـمن المجتمعـات الرأسـمالية المتقدمة، إن الأشياء التي يعتبرهـا جرامشـى خصـائص "المجتمع المدني"- الكنيسة والمنظمات السياسـية والثقافيـة والحضرية، تعددية الأحـزاب البرجوازيـة والبرجوازيـة الصغيرة، تأثير المثقفين الوظيفيين، مثل المحامين والمدرسين

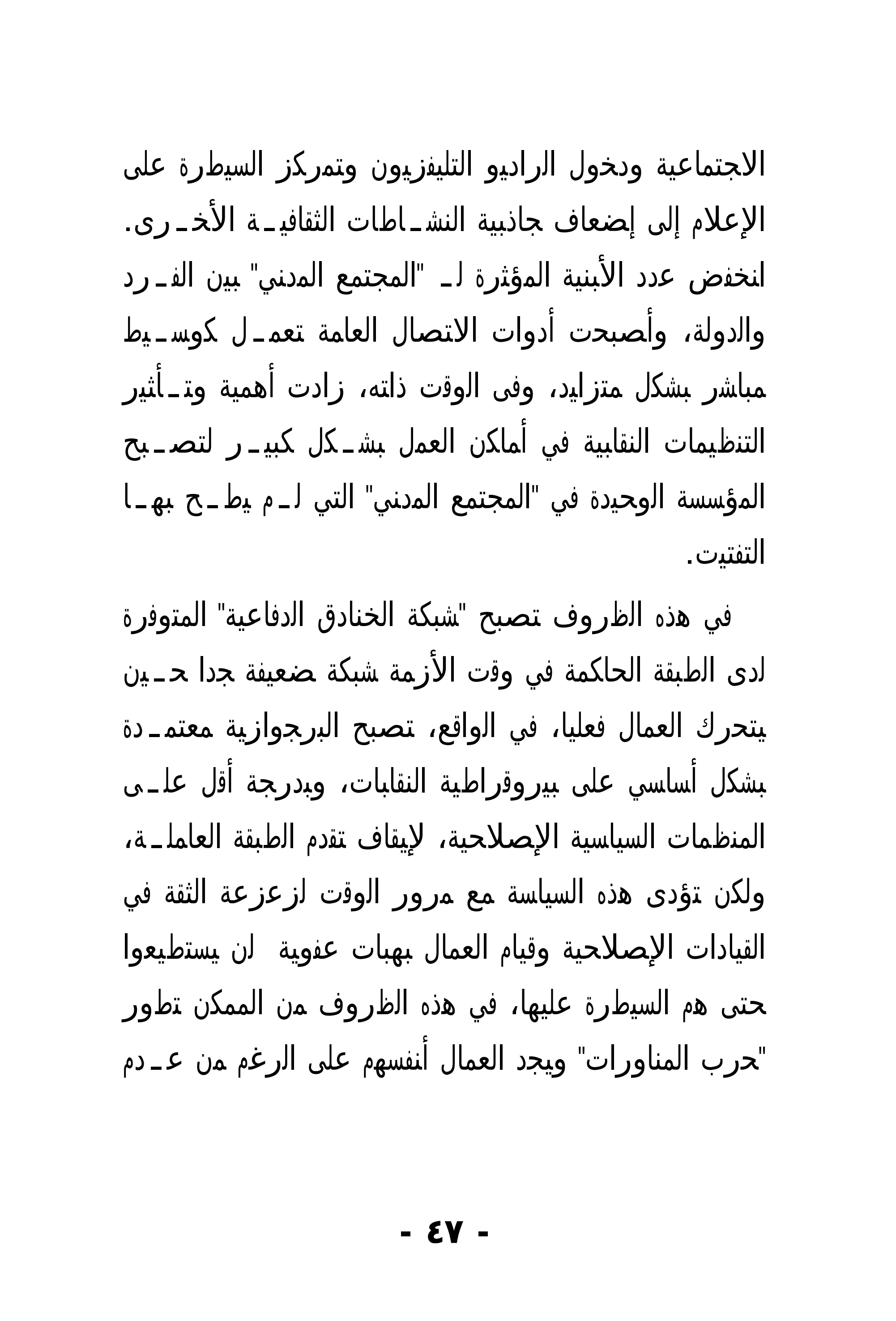


والقساوسة- نعتبرها اليوم مجرد ظواهر انتقالية عبرت عن تخلف إيطاليا في العشرينات والثلاثينات، عن الغلبة العددية للفلاحين والبرجوازية الصغيرة والبروليتاريا الرثة. تلك الطبقات والفئات الاجتماعية تقل مع مرور الوقت أهميتها في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ونفس الشيء بالنسبة للمنظمات السياسية والثقافية الحضرية.

تميزت فترة ما بعد الحرب في البلدان الرأسمالية المتقدمة بظاهرة اللا مبالاة- سقوط في المشاركة الجماهيرية في التجمعات السياسية والثقافية وتناقص عدد أعضاء الكنيسة إلى النصف في العشر سنوات الأخيرة، أما المثقفون الوظيفيون، المحامين والمدرسين والقساوسة والأطباء فلم يعد لهم أي دور رئيسي في تشكيل الرأي العام المحلى.

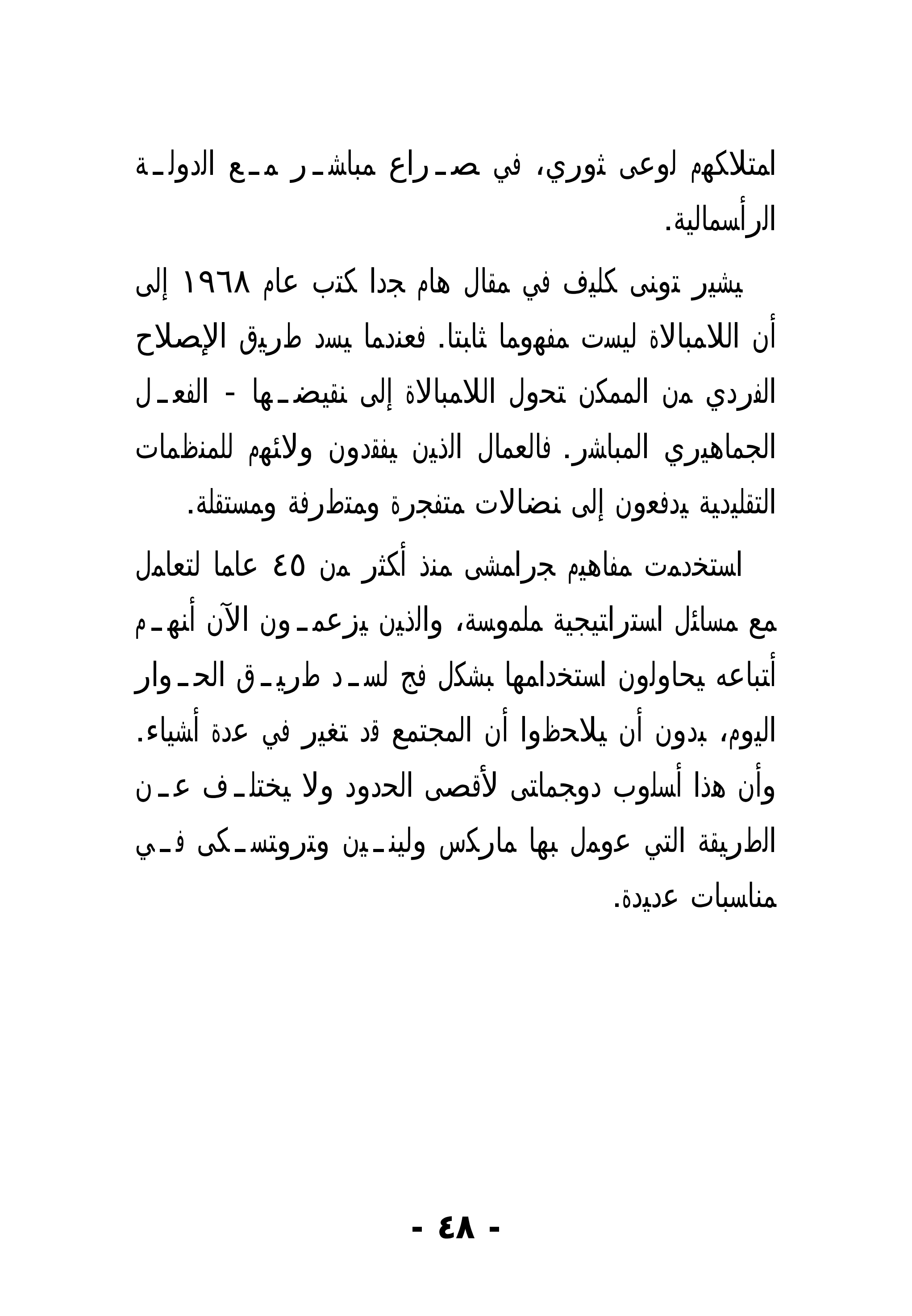
تؤدى الرأسمالية إلى تمركز الساطة الأيديولوجية وإلى تفتيت الجماهير، باستثناء التنظيمات النقابية في أماكن العمل، وتؤدى أيضا إلى إضعاف التنظيمات السياسية والنقابية.

من جهة، لعب تكثيف عملية الإنتاج دورا مهما، فقد أدى نظام ورديات العمل إلى صعوبة تنظيم التجمعات السياسية والسياسية والثقافية ومن جهة أخرى، أدت تجارية الحياة



الاجتماعية ودخول الراديو التليفزيون وتمركز السيطرة على الإعلام إلى إضعاف جاذبية النشـاطات الثقافيـة الأخـرى. انخفض عدد الأبنية المؤثرة لـ "المجتمع المدني" بين الفـرد والدولة، وأصبحت أدوات الاتصال العامة تعمـل كوسـيط مباشر بشكل متزايد، وفى الوقت ذاته، زادت أهمية وتـأثير التنظيمات النقابية في أماكن العمل بشـكل كبيـر لتصـبح المؤسسة الوحيدة في "المجتمع المدني" التي لـم يطـح بهـا التفتيت.

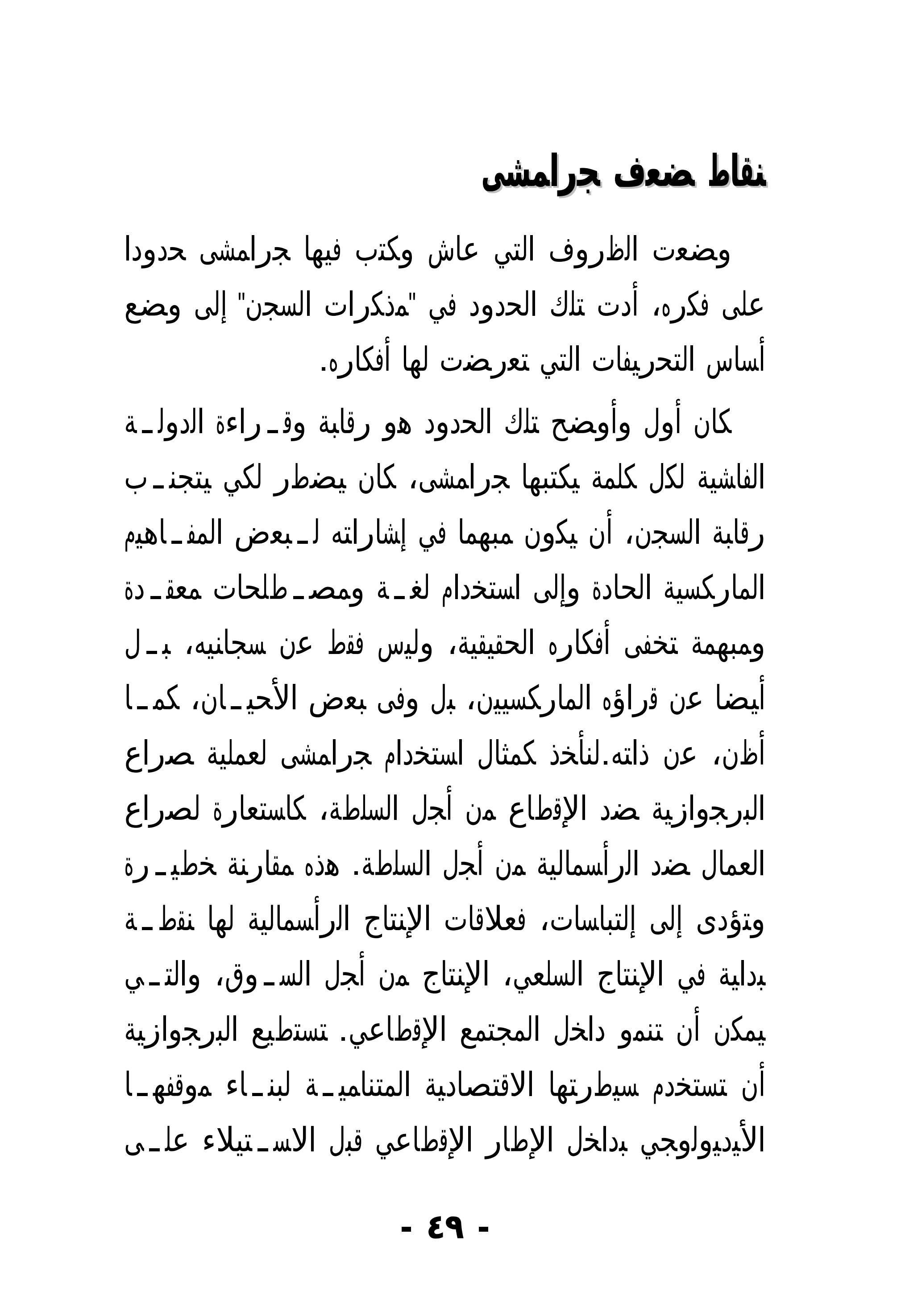
في هذه الظروف تصبح "شبكة الخنادق الدفاعية" المتوفرة لدى الطبقة الحاكمة في وقت الأزمة شبكة ضعيفة جدا حـين يتحرك العمال فعليا، في الواقع، تصبح البرجوازية معتمـدة بشكل أساسي على بيروقراطية النقابات، وبدرجة أقل علـى المنظمات السياسية الإصلاحية، لإيقاف تقدم الطبقة العاملـة، ولكن تؤدى هذه السياسة مع مرور الوقت لزعزعة الثقة في القيادات الإصلاحية وقيام العمال بهبات عفوية لن يستطيعوا حتى هم السيطرة عليها، في هذه الظروف من الممكن تطور "حرب المناورات" ويجد العمال أنفسهم على الرغم من عـدم



امتلاكهم لوعى ثوري، في صـراع مباشـر مـع الدولـة الرأسمالية.

يشير تونى كليف في مقال هام جدا كتب عام ١٩٦٨ إلى أن اللامبالاة ليست مفهوما ثابتا. فعندما يسد طريق الإصلاح الفردي من الممكن تحول اللامبالاة إلى نقيضـها - الفعـل الجماهيري المباشر. فالعمال الذين يفقدون ولائهم للمنظمات التقليدية يدفعون إلى نضالات متفجرة ومتطرفة ومستقلة.

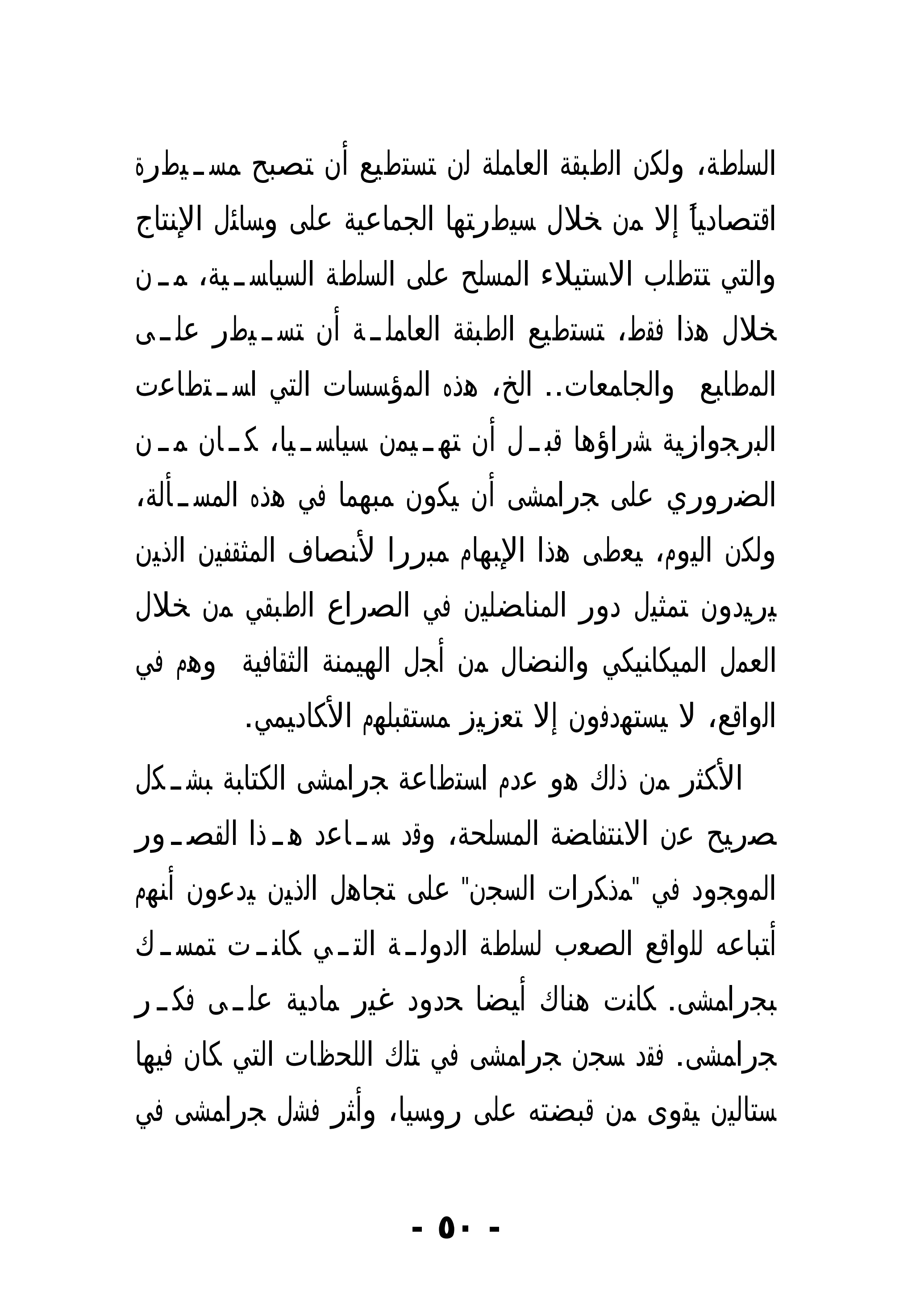
استخدمت مفاهيم جرامشى منذ أكثر من ٤٥ عاما لتعامل مع مسائل استراتيجية ملموسة، والذين يزعمـون الآن أنهـم أتباعه يحاولون استخدامها بشكل فج لسـد طريـق الحـوار اليوم، بدون أن يلاحظوا أن المجتمع قد تغير في عدة أشياء. وأن هذا أسلوب دوجماتى لأقصى الحدود ولا يختلـف عـن الطريقة التي عومل بها ماركس ولينـين وتروتسـكى فـي مناسبات عديدة.



نقاط ضعف جرامشى

وضعت الظروف التي عاش وكتب فيها جرامشى حدودا على فكره، أدت تلك الحدود في "مذكرات السجن" إلى وضع أساس التحريفات التي تعرضت لها أفكاره.

كان أول وأوضح تلك الحدود هو رقابة وقـ راءة الدولـة الفاشية لكل كلمة يكتبها جرامشى، كان يضطر لكي يتجنـب رقابة السجن، أن يكون مبهما في إشاراته لـبعض المفـاهيم الماركسية الحادة وإلى استخدام لغـة ومصـطلحات معقـدة ومبهمة تخفى أفكاره الحقيقية، وليس فقط عن سجانيه، بـل أيضا عن قراؤه الماركسيين، بل وفى بعض الأحيـان، كمـا أظن، عن ذاته.لنأخذ كمثال استخدام جرامشى لعملية صراع البرجوازية ضد الإقطاع من أجل السلطة، كاستعارة لصراع العمال ضد الرأسمالية من أجل السلطة. هذه مقارنة خطيـرة وتؤدى إلى إلتباسات، فعلاقات الإنتاج الرأسمالية لها نقطـة بداية في الإنتاج السلعي، الإنتاج من أجل السـوق، والتـي يمكن أن تنمو داخل المجتمع الإقطاعي. تستطيع البرجوازية أن تستخدم سيطرتها الاقتصادية المتناميـة لبنـاء موقفهـا الأيديولوجي بداخل الإطار الإقطاعي قبل الاسـتيلاء علـى



السلطة، ولكن الطبقة العاملة لن تستطيع أن تصبح مسـيطرة اقتصادياً إلا من خلال سيطرتها الجماعية على وسائل الإنتاج والتي تتطلب الاستيلاء المسلح على السلطة السياسـية، مـن خلال هذا فقط، تستطيع الطبقة العاملـة أن تسـيطر علـى المطابع والجامعات.. الخ، هذه المؤسسات التي اسـتطاعت البرجوازية شراؤها قبـل أن تهـيمن سياسـيا، كـان مـن الضروري على جرامشى أن يكون مبهما في هذه المسـألة، ولكن اليوم، يعطى هذا الإبهام مبررا لأنصاف المثقفين الذين يريدون تمثيل دور المناضلين في الصراع الطبقي من خلال العمل الميكانيكي والنضال من أجل الهيمنة الثقافية وهم في الواقع، لا يستهدفون إلا تعزيز مستقبلهم الأكاديمي.

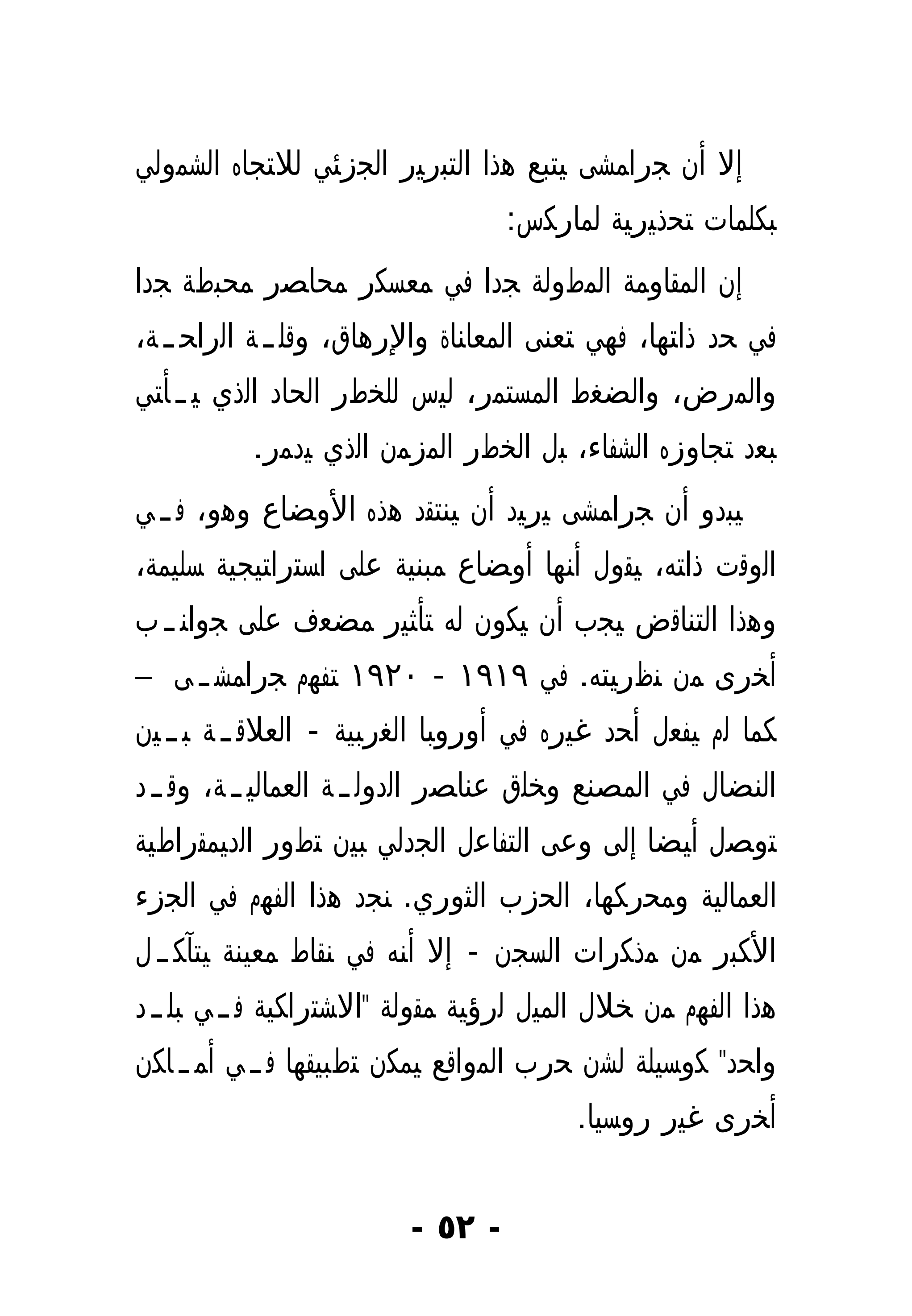
الأكثر من ذلك هو عدم استطاعة جرامشى الكتابة بشـكل صريح عن الانتفاضة المسلحة، وقد سـاعد هـذا القصـور الموجود في "مذكرات السجن" على تجاهل الذين يدعون أنهم أتباعه للواقع الصعب لسلطة الدولـة التـي كانـت تمسـك بجرامشى. كانت هناك أيضا حدود غير مادية علـى فكـر جرامشى. فقد سجن جرامشى في تلك اللحظات التي كان فيها ستالين يقوى من قبضته على روسيا، وأثر فشل جرامشى في

فهم تلك العملية على فكره بشكل أعمق ممـا يبـدو للوهلـة الأولى.

أعلن جرامشى تأييده لجبهة سـتالين - بوخـارين التـي شكلت في ١٩٢٥ ويبدو أنـه تقبـل فكـرة محاولـة بنـاء الاشتراكية في بلد واحد كجزء من "حرب المواقع" الأمميـة من خلال إعطاء تنازلات للفلاحين. ولهذا اعتبر معارضـة تروتسكى للاشتراكية في بلد واحد رفض يساري - متطرف لسياسة الجبهة المتحدة - على الرغم من أن جرامشى كـان يعلم تماما أن تروتسكى هو أحد المبدعين الأساسيين لتكتيـك الجبهة المتحدة.

كان جرامشى، كما رأينا، واعيـا ناقـدا بقـوة للبقرطـة الستالينية الخانقة، إلا أن قبوله لسياسة سـتالين- بوخـارين ١٩٢٥-١٩٢٨ منعته من عمل تحليل سليم للخطأ الذي حدث في روسيا، وهو يكتب في مذكرات السجن:

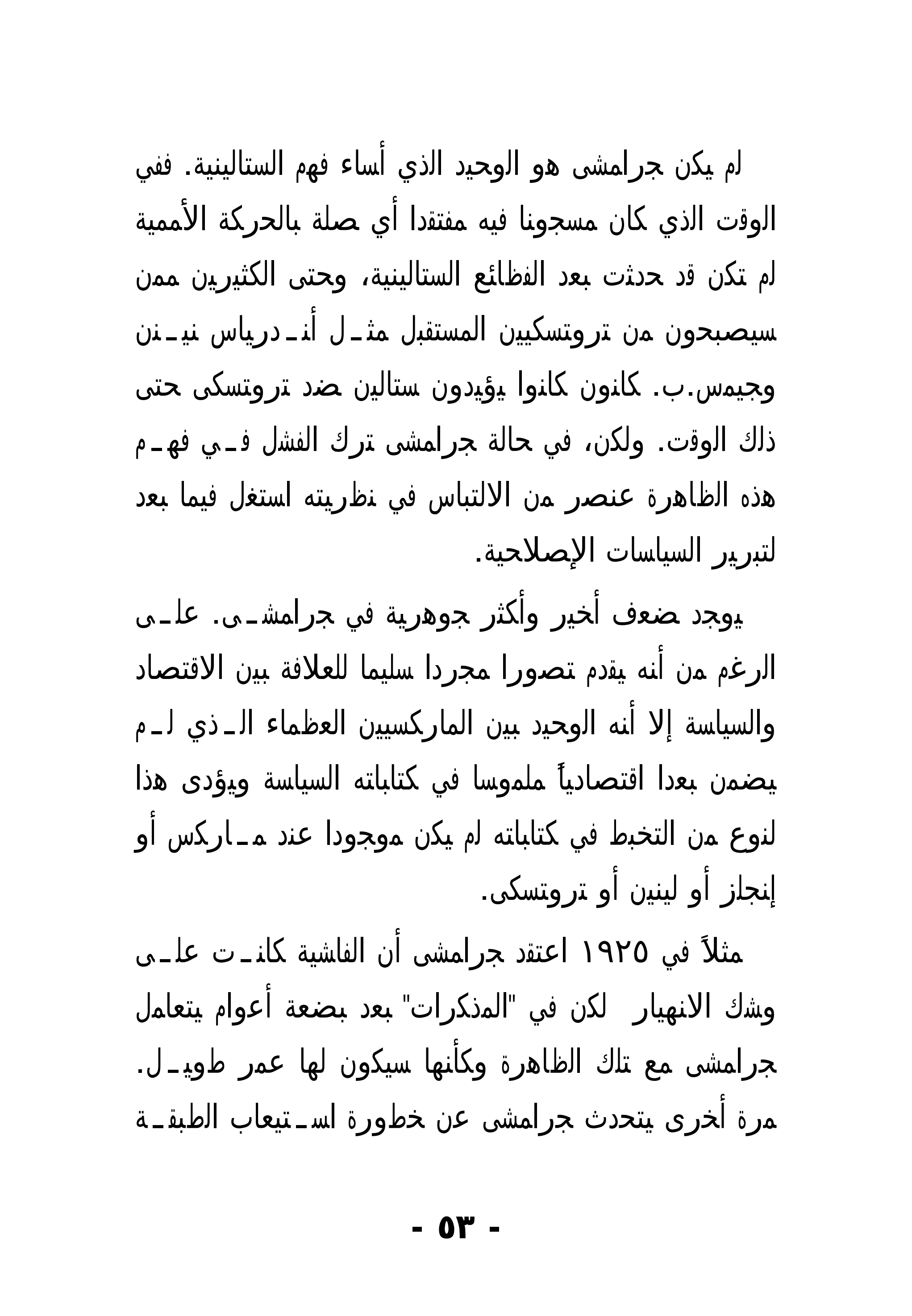
"تتطلب حرب المواقع تضحيات ضخمة مـن أعـداد لا حصر له من الجماهير، لذلك من الضروري وجود تركيـز غير مسبق للهيمنة، وبالتالي من الضروري وجود حكومـة أكثر تدخلية، تستطيع الهجوم على المعارضين......"



إلا أن جرامشى يتبع هذا التبرير الجزئي للاتجاه الشمولي بكلمات تحذيرية لماركس:

إن المقاومة المطولة جدا في معسكر محاصر محبطة جدا في حد ذاتها، فهي تعنى المعاناة والإرهاق، وقلـة الراحـة، والمرض، والضغط المستمر، ليس للخطر الحاد الذي يـأتي بعد تجاوزه الشفاء، بل الخطر المزمن الذي يدمر.

يبدو أن جرامشى يريد أن ينتقد هذه الأوضاع وهو، فـي الوقت ذاته، يقول أنها أوضاع مبنية على استراتيجية سليمة، وهذا التناقض يجب أن يكون له تأثير مضعف على جوانـب أخرى من نظريته. في ١٩١٩ - ١٩٢٠ تفهم جرامشـى – كما لم يفعل أحد غيره في أوروبا الغربية - العلاقـة بـين النضال في المصنع وخلق عناصر الدولـة العماليـة، وقـد توصل أيضا إلى وعى التفاعل الجدلي بين تطور الديمقراطية العمالية ومحركها، الحزب الثوري. نجد هذا الفهم في الجزء الأكبر من مذكرات السجن - إلا أنه في نقاط معينة يتآكـل هذا الفهم من خلال الميل لرؤية مقولة "الاشتراكية فـي بلـد واحد" كوسيلة لشن حرب المواقع يمكن تطبيقها فـي أمـاكن أخرى غير روسيا.



لم يكن جرامشى هو الوحيد الذي أساء فهم الستالينية. ففي الوقت الذي كان مسجونا فيه مفتقدا أي صلة بالحركة الأممية لم تكن قد حدثت بعد الفظائع الستالينية، وحتى الكثيرين ممن سيصبحون من تروتسكيين المستقبل مثـل أنـدرياس نيـنن وجيمس.ب. كانون كانوا يؤيدون ستالين ضد تروتسكى حتى ذلك الوقت. ولكن، في حالة جرامشى ترك الفشل فـي فهـم هذه الظاهرة عنصر من الالتباس في نظريته استغل فيما بعد لتبرير السياسات الإصلاحية.

يوجد ضعف أخير وأكثر جوهرية في جرامشـى. علـى الرغم من أنه يقدم تصورا مجردا سليما للعلاقة بين الاقتصاد والسياسة إلا أنه الوحيد بين الماركسيين العظماء الـذي لـم يضمن بعدا اقتصادياً ملموسا في كتاباته السياسة ويؤدى هذا لنوع من التخبط في كتاباته لم يكن موجودا عند مـاركس أو إنجلز أو لينين أو تروتسكى.

مثلاً في ١٩٢٥ اعتقد جرامشى أن الفاشية كانـت علـى وشك الانهيار لكن في "المذكرات" بعد بضعة أعوام يتعامل جرامشى مع تلك الظاهرة وكأنها سيكون لها عمر طويـل. مرة أخرى يتحدث جرامشى عن خطورة اسـتيعاب الطبقـة

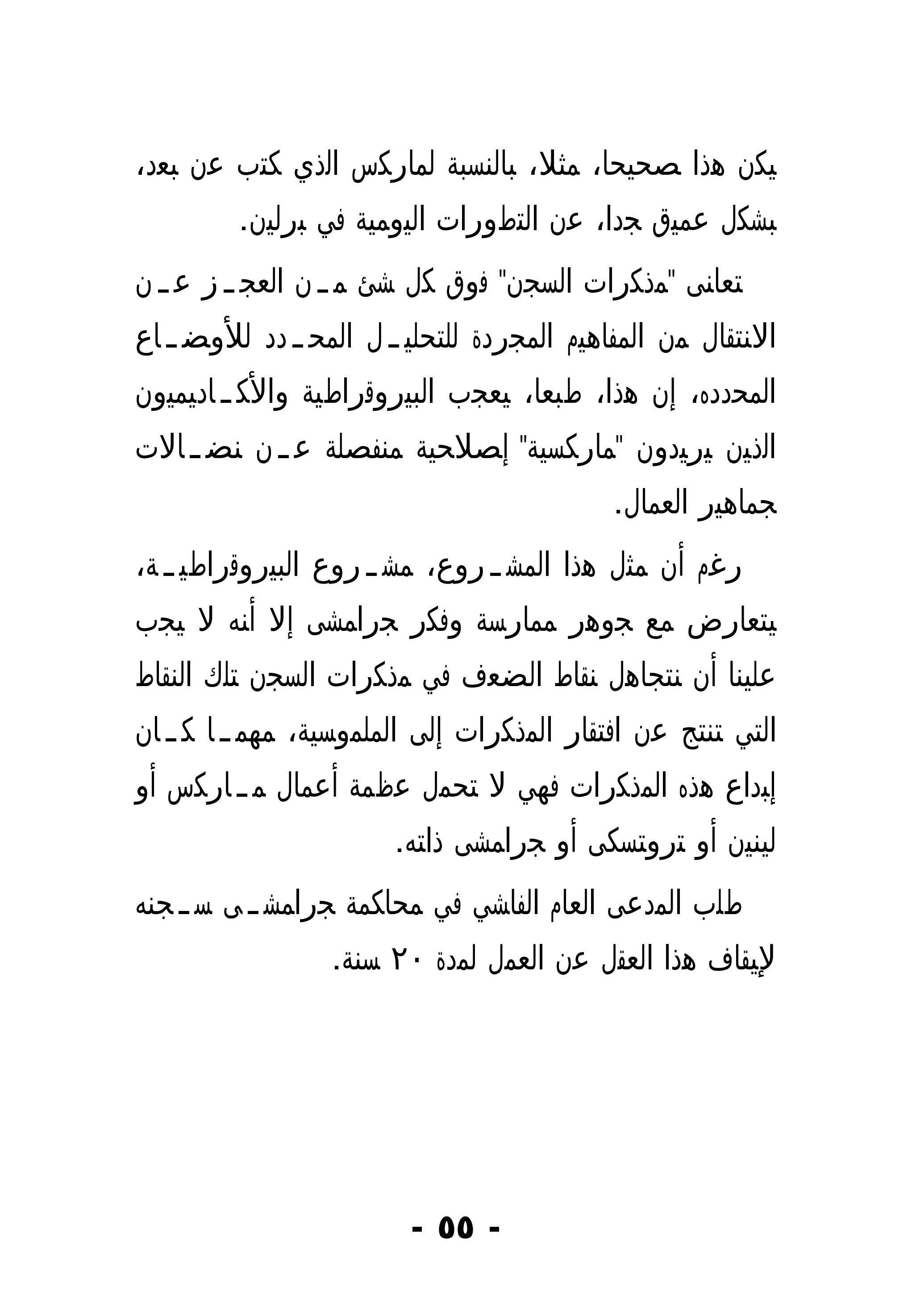
العاملة فى النظام وذلك دون أن يناقش الشروط الاقتصـادية التي يمكنها أن تسمح بمثل هذا التطور.

عموماً يوجد فشل عام في توضيح العلاقة الحقيقية بـين وضع اقتصادي معين والصراعات السياسية والأيديولوجيـة للأفراد التي تتأثر به. في سـنوات ١٩١٦ - ١٩٢٦ تمكـن جرامشى من ملء هذا الفراغ من خلال اعتماده على خبرته المباشرة في الصراع الطبقي . لذا نجد أن أفضل كتاباته هي التي يتعامل فيها، من خلال اندماجه مع العمـال ومحاولـة توجيههم، مع المشاكل الرئيسية لنضالات جارية.

ولكن في ١٩٢٦ اختطفته الدولة الفاشية. كان جرامشـى واعيا تماما بمعنى هذا.

إن الكتب والمجلات تحتوى على مفاهيم معممة أفضل ما يمكنها هو إعطاء مسودة عامة لمسار الأحداث فـي العـالم، إنها لا تعطى تقدير مباشر وحي لحيـاة الأفـراد... إن لـم تستطع فهم الأفراد الحقيقيين فلن تفهم ما هو أعم وأشمل.

كان هذا صحيحاً بالنسبة لجرامشى، الذي لم يكن قـادرا بدون التجربة الشخصية المباشرة على تفهم التفاعل المحـدد بين الظرف الاقتصادي ورد فعل الأفراد السياسي. ولكن لـم



يكن هذا صحيحا، مثلا، بالنسبة لماركس الذي كتب عن بعد، بشكل عميق جدا، عن التطورات اليومية في برلين.

تعانى "مذكرات السجن" فوق كل شئ مـن العجـز عـن الانتقال من المفاهيم المجردة للتحليـل المحـدد للأوضـاع المحدده، إن هذا، طبعا، يعجب البيروقراطية والأكـاديميون الذين يريدون "ماركسية" إصلاحية منفصلة عـن نضـالات جماهير العمال.

رغم أن مثل هذا المشـروع، مشـروع البيروقراطيـة، يتعارض مع جوهر ممارسة وفكر جرامشى إلا أنه لا يجب علينا أن نتجاهل نقاط الضعف في مذكرات السجن تلك النقاط التي تنتج عن افتقار المذكرات إلى الملموسية، مهمـا كـان إبداع هذه المذكرات فهي لا تحمل عظمة أعمال مـاركس أو لينين أو تروتسكى أو جرامشى ذاته.

طلب المدعى العام الفاشي في محاكمة جرامشـى سـجنه لإيقاف هذا العقل عن العمل لمدة ٢٠ سنة.

لم ينجح الفاشيون في تلك المحاولة، ولكنهم نجحـوا فـي حرمان جرامشى من الاشتراك المباشر في الصراع الطبقي، وفي منع ماركسيته من إدراك القدرات الكامنة التي ظهـرت في جريدة "العصر الحديث" و "أطروحات ليون"